يشار كمال

مجموعة قصص

ترجمة

عبد الوهاب الداقوقي

دار الرشيد للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ الجمهورية العراقية
١٩٨٠ ــــــــــــــــــ سلسلة الكتب المترجمة
(٨٩)



مجموعة قصص

ترجمة

عبد الوهاب الداقوقي

مدخل ..

كثيراً ما تحول الحواجز التاريخية واللغوية دون أن يتعدى أدب بعض البلدان الى خارج حدودها الجغرافية ، رغم ما يحمله هذا الادب من شروط ابداعية عالية وما يتناوله من قضايا انسانية عامة . وينطبق هذا الوضع على تركيا خاصة بعد الحرب العالمية الأولى .

ويبدو ان هذا الحاجز اخذ يتخلخل في الاونة الاخيرة ، حيث قامت دور النشر العالمية ــ الفرنسية منها بالاخص ــ بترجمة اعمال الكاتب التركي يشار كمال . وكانت روايته « محمد النحيف » اول عمل له ترجم الى الفرنسية واستقطب اهتمام النقاد حتى ان بعضهم وصف مؤلفه بانه « هوميروس القــرن العشرين » وقال عنه الآن بوسكيه : « انه اكبر روائي نعرفه الان » .

ومنذ عام ١٩٧٥ واسم يشار كمال يتردد ضمن اسماء المرشحين لجائزة نوبل ، ورغم الملاحظات التي اثيرت حول طبيعة هذه الجائزة الا ان ترشيح أديب من احد بلدان العالم الثالث وبهذا لالحــاح لنيلها له دلالته واهميته دون شك .

« لا أريد ان أدعي التواضع ، ان لهذه الجائزة جوانب مهمة كما ان لها جوانبها السيئة • وانا اول اديب تركي يرشحونه لها • والحقيقة ان هذا الترشيح انما هو للأدب التركي وليس لي بالذات ، وانا موقن من ان ادبنا في مستوى الفوز بها وهو يستحقها عن جدارة سواء في ابداعاته بالأمس او اليوم • • »

ان يشار كمال يكتب دون ان ينقطع عن جذوره ، فقدماه مغمورتان في ارض تركيا ، في منطقة « چوقور اوا » بالذات حيث الطبيعة تتغير مع تغير المرحلة التاريخية • فحين تعدت هذه المنطقة مرحلة الاقطاع ، جفت المستنقعات أو تم تجفيفها ، لكن النسور والفراشات والغزلان قد ماتت • ويبدو ان ما يريد يشار كمال قوله هو ان نظام سير الانسان ونظام سير الطبيعة متوازيان •

« لقد عشت الطبيعة في چوقور اوا اثناء ماكان الاقطاع مسيطرا فيها ، كانت آنذاك منطقة مغطاة بالغابات والاحراش والمستنقعات كانت فيها آلاف الانواع من الطيور والفراشات والزهور • لكن ما حدث بعد ذلك هو اختفاء كل هذه العناصر والكائنات دفعة واحدة ، وتحول هذا السهل الشاسع الى حقول ممتدة • • ومع تغير الطبيعة تغيرت طباع الناس ايضا • • »

ان منطقة « چوقور اوا » مسرح احداث قصص وروايات يشار كمال ، مساحة حية ، يتعامل معها كما يتعامل مع كائنات تنبض بالحياة •

ان للطبيعة قيمة اخرى عند يشار كمال •

« منطقة چوقور اوا ليست مساحة جغرافية خالية وجامدة ، انها سهل منبسط وفسيح ، مستنقعات ، ضفاف مكسوة بالاشجار والاحراش ، مياه جارية ، بحار هائلة ، بعوض مثل سحاب اسود، دوارات هوائية تمتد مثل سعلاة هائلة منتصبة ، نقاء ممتد ،حمى، مرض ، عظام متوجعة ، عرق ناضح ، سيارات ، تراكتورات ، مكائن حصاد ، مخلوقات خرافية عاجزة عن الكلام لكنها قادرة على الصراخ ، لها اياد من القطن وأجساد من الحرير وشعر من البريسم ، قبعات حصير ، ثياب بيضاء ، عيون سود •• انها ليست أرض قاحلة بل وحش أخضر يهبط من السماء بحفيف آسر مثل الغيم •• »

داخل هذا الاطار الخارق الذي يحافظ على كل الموجودات في « چوقور اوا » طرية ، نابضة بالحياة ، تجري احداث قصص يشار كمال • انه اسلوب شاعر ، اسلوب كاتب سوسيولوجيا •

« حتى في روايات القرن التاسع عشر العظيمة ، لم تتعد الطبيعة عن كونها ديكورا لاحداث تلك الروايات ، لذا فعلاقة الانسان — الطبيعة لم تكن سارية في دم الانسان ، ولم يكن الانسان مسكونا في قلب الطبيعة وشرايينها • والحال ان الطبيعة والانسان متممان لبعضهما كما في الحياة •

لقد اعتبرنا الانسان دائما جزء من الطبيعة والحال ان الطبيعة هي الاخرى جزء من الانسان • ومن ثم اذا كان لكل كائن انساني ولكل مجتمع انساني شخصية واضحة ومحددة ، فان لكل مساحة من الطبيعة شخصية مستقلة قائمة ايضا • فاذا ما ادركنا هذا اختلفت رؤيتنا للامور تماما •

ان عناصر الطبيعة تحوز مني على اهتمام مقـارب لاهتمامي بالانسان ان لم يكن على ذات المستوى • وبالطبع لا ادعي انني من اكتشف هذه العلاقة بين الانسان والطبيعة ، لكنني واحد من اولئك الذين تناولوا الطبيعة بشكل سليم في روايات عصرنا •

ان عالم القرية واناسها مثل اي موجودات الكون ، في تبدل مستمر • في القرية يولد الانسان والطبيعة كل يوم من جديد • اما اولئك الذين يظنون ان القرية قد زالت او في طريقها الى الزوال عن الجـود امـام زحف المدن ، وان كتاب القـرية ـ قد فقـدوا مصادر كتاباتهم بزوال القرية ، هؤلاء اعتبرهم غير سليمي العقول • ان القرية والمدينة متلاحمتان ، فاذا افترضنا ان يوما سيأتي ـ ولن ياتي بالطبع ـ تزول القرية فيه عن الوجود ، فان ادب القرية باق ومستمر ، ان مستوى حياة الانسان متوقف على بقاء القرية والا من اين سيتم توفير الغذاء للتفجر السكاني عام الألفين ؟ اظن ان مرحلة الهجرة من المدن الى القرى قادمة قريبا • »

كل شيء في كتابات يشار كمال موجود في قيظ چوقور اوا ، وكل شيء يترشح من خلال موشور واقعي دقيق • ان ما يكتبه اساطير تعود للشعب ، لكن جانبا علميا ، اتنوغرافيا ، نقديا يكمن في هذه الكتابات ، وهناك من يرى تشابها بينه وبين اميل زولا • وهو يتناول تفصيلات حياة القرية في سهل چوقور اوا بابعادهـا المختلفة : الاقتصادية ، الاجتماعية ، الفولكلورية •

لكن الموضوع الرئيس عنده هو نضال الفلاحين ضد الاقطاع والاجهزة المساندة له وضد استغلال الطبقة المتوسطة المتمثلة بالتجار

المحليين • وشخصيات يشار كمال هم البخلاء المرضى ، البرجوازيون الصغار الذين لايرون أبعد من انوفهم كما في كتابات موليير ، وصيادو الارث الذين يلهثون وراء المال ومن ثم يقنعون باقل من القليل في النهاية •

والقرويون الذين يناضلون ضد اللاعدالة • انهم اناس يسكنون دوائر غامضة ومقفلة ، ليس فيهم من هو سيد مصيره ، لهم قدرة الكلام لكن اصواتهم غامضة وخافتة •

ان كل عمل من اعماله هو ضربة عنيفة من قبضة يد قوية ضد كل ما هو غير طبيعي وغير معقول في هذا العالم ، وهو يوقظ لدى القاريء ذلك الحس الانساني الذي بدأ يخفت عنده تدريجيا ، فيشعره بنفسه وقد تغير واثرى داخليا بعد ان يطوي كتابه •

ان يشار كمال مخلوق من دماء شعوب الاناضول ، يمتليء قلبه بحكايات واساطير شعبية التي تواترت من نسل الى نسل ، وهو اشبه بهوميروس في كتاباته ، كتابات مزيجة من التاريخ والاسطورة ، الحقيقة والخيال • وهو يواصل بجدارة نقل تراث شفاهي ثري آت من سفوح جبال آرارات ومتناثر على سواحل بحر ايجة • ان اعماله ليست عمليات ابداعية فحسب بل هي بحث وتبديل واضافة • انه لايكتفي بادانة العصر بالكشف عن زيفه ومظالمه بل يطعم عمله بسخرية سوداء مثل سرفانتس ، وله قدرة الكتاب الروس العظام في نزوله الى اعماق مواضيعه بحيث يجعل هذه المواضيع اكثر حيوية وهيجانا من الحياة نفسها •

« ان مكانة الاديب والشاعر كانت فاعلة ومؤثرة دائما في المجتمع التركي الى درجة ان كثيرا من شعرائنا قدموا رؤوسهم ثمناً لمواقفهم وافكارهم ، وكانوا الصوت الفاضح للظلم في المجتمع . »

هذه المجموعة القصصية من بواكير كتابات يشار كمال . بعدها تحول الى كتابة الرواية . وقد آثرت تناولها منذ البدء ضمن خطة لترجمة الاعمال الكاملة لهـذا الكاتب من لغتها الاصلية وحسب تسلسلها التاريخي .

وهنا ، كما في رواياته ينظر يشار كمال الى العلاقة القائمة بين الطبيعة والانسان نظرة اخرى . انها علاقة مصيرية تتأثر بكل مايطرأ على طرفي المعادلة من تغير . ان هذه العلاقة تأخذ دورها الفاعل في معالجات الكاتب لمواضيعه دون ان تطغي على الموضوع المركزي عنده وهو الوعي بالاضطهاد واللاعدالة . بل انها تتحول الى اطار مؤثر لابراز هذا الوعي بحيث يجعل القاريء في حالة توق وتأهب دائميين للانضمام الى صف المضطهدين لاقتفاء اثار مضطهديهم ، بيد ان هذا الافراط في مراقبة مؤشر معادلـة الطبيعة والانسان يحجب احيـانا النمو الدرامي الطبيعي عن الحـدث والتكثيف السايكولوجي عن الشخصية ، وهذا ما لايحدث في رواياته حيث التلاحم مركزي ودقيق بين الحدث والشخصية والاطار (الطبيعة) .

اعتمدت في كتابة هذه المقدمة الموجزة على الموضـوع المنشور حول يشار كمال في مجلـة « يانقي » التركيـة . العـدد : (٤٧) في ١٢ـ١٨ مارت ١٩٧٩

الرَضيعُ

كان يمشي مسرعا وقد تصاعد الغبار حتى منتصف قامته ودوخته الشمس الساقطة بشكل شاقولي على يافوخه ، وهو يتمايل الى جانبيه كلما أحسّ بلسعات التراب الساخن مثل الجمر والذي كان يتسرب من خلال شقوق حذائه الممزق ، وكان يحمل في حضنه طفلا مغمض العينين وملفوفا في قماط ملون ، يتدلى رأسه الذي تحمله رقبة هزيلة من على ذراعه الايمن ويغطي طبقة من التراب وجهه الذي كان أحمر مثل قطعة من كبد .

كان اسماعيل يمشي ويغمغم وقد امتزج الغبـار مع العرق الناضح من صايته مكونا مزيجا طينيا ، وكان ضجيج الحاصدين وهدير مكائن الحصاد ينتشر على جانبي الطريق .

انحرف الى حقل جانبي فيه رجال ونساء من الفلاحين .ووضع ما في حضنه على الارض الرطبة تحت عربة واقفة يرقد لصقها كلب أصفر يتدلى لسانه ، وتسلق العربة وتناول من الحب الموضوع فوقها طاسة ماء رفعها الى فمه ثم سكب ماتبقى فيهـا على صدره المشعّر المفتوح ، وجلس مستندا بظهره الى عجلة العربة ومـدّ

ساقيه وقد برز ابهامه الذي كان ظفره طويلا ومتكسرا وباطنه متشققا من فتق حذائه العتيق .

اتجهت الى العربة فلاحة لتشرب الماء ، واذ بغلتها تغيرت ملامحها فجأة واستطال ذقنها واتسعت عيناها الكبيرتان السوداوان :

« ماهذا ؟ ما الذي تفعله هنا ياأخ اسماعيل ؟ »

ثم ركزت نظراتها فيما تحت العربة وهتفت :

« واه زالا ، واه يا حلوتي ! »

انحنت ورفعت الطفل الى حضنها وقالت :

« ان رقبته متدلية ، لن يعيش هذا يا أخي . واه يازالا .. واه يا سوداء العينين .. لم يكن لزالا مثيل .. »

واخرجت ثديها والقمته الطفل الذي التقطه حالا :

« انظر يا أخ اسماعيل ، انه يلتقط الثدي ، لقد هدّه الجوع والحر، سأنادي على حورو لترضعه ، فقد تركت صغيرها في البيت وثدياها طافحان بالحليب وهي تحلبهما على التراب منذ الصباح . »

وسحبت ثديها من فم الطفل قائلة :

« انه لايـدع حتى الثدي المتيبس . » ثم ولّت وجهها شطر الفلاحات وصاحت :

« حورو .. ياحورو ، تعالي ! تعالي ! »

انفصلت حورو عن رهطها واقبلت عليها .

« انظري ياحورو ، انه طفل زالا ، تعالي وأرضعيه . »

أخذت حورو الطفل منها وادارت ظهرها وهي تقول :

« واه ، لا احد يأكل نصيب غيره ، لقد تورمت ثدياي ولم أعد احتمل ، وكنت على وشك ان أحلبهما على التراب • »

قالت المرأة ذات الذقن الرفيع :

« لم يكن لزالا مثيل ، اجل لم يكن لها مثيل • كنا نذهب للعزف معاً مُذْ كنا بنات ، كان وجهها ضاحكا ابدا وشعرها بنيا غزيرا لكنها كانت تكره المشي حافية ، وكان هذا عيبها الوحيد• »

سحبت حورو ثديها من فم الطفل ، وكانت عيناه مغمضتين وبقايا حليب على جانبي فمه وعلى ذقنه الذي كان مايزال يتحرك •

« كنت سأحلب ثديي على التراب ـ قالت حورو منتجة ـ واه يا زالا ، هل سيبقى صغيرها هكذا في ايدي الاغيار ؟ »

« كيف ماتت زالا يا أخي ؟ » سألت المرأة ذات الذقن الرفيع •

ترك بعض النسوة اللائي شاهدن الطفل في حضن حورو عملهن وأقبلن نحو العربة •

« من هذا ؟ » هتفت العجوز حوا التي برز شعرها الابيض من تحت ملائتها المزقة : « أهو رضيع زالا ؟ واه زالا ! » واغرورقت عيناها وسالت قطرات منها على خديها : « واه زالا ! ياذات العينين السوداوين ، يا سيئة الحظ • كيف حدث هذا يابني ؟ كيف ماتت ؟ »

«كيف ماتت يااسماعيل ؟ » سألت قره اليف ،المرأة البدينة والقصيرة القامة والضامرة الخدين ٠ « لماذا لم تفعل لها شيئا ؟ »

كان اسماعيل يغمغم مع نفسه وهو مطرق ، ثم هبّ واقفا ونفض بيده مؤخرته واخذ الطفل من حورو ٠ وقال بصوت حاد :

« لقد ماتت ، رغم انني اخذتها الى الطبيب واشتريت لها ابرا زرقوها بها ٠٠ لكنها ماتت ٠٠»

وانصرف مبتعدا بسرعة ، وكان سرواله الاسود الطويل والرث يهفهف في ساقيه الطويلتين ، ويبدو لباسه الآبيض من شقوقه وظلت النساء يحدقن من ورائه ٠ ثم مطت العجوز حوا شفتيها ببطء قائلة :

« ياله من مسكين ، انظرن اليه كم هو بائس ! انه يبكي دماً ، ولم يجرؤ ان يحدق في وجوهنا وكأنه هو قاتلها ٠ »

« أماه ! » ـ قالت المرأة القصيرة ذات الخدين الضامرين ـ « لم يعتن مكسور الرقبة بزالا ٠٠ ليتجول هكذا والطفل في حضنه ، ولينتقل بين القرى ، ليتنقل ! عشرون يوما ولم يأخذها الى طبيب ، لقد تفسخت مشيمتها في بطنها ٠ لم يكن لزالا مثيل ، ولو كانت العجوز أمينة حية لحرمتها على اسماعيل هذا الغريب الذي لا أحد يعرف غير الله من اين جاء ٠ »

قالت حورو من مكانها :

« لكنه رجل وديع ، وهاقد بقي المسكين في أبواب الناس ٠ »

« هل بوسعه ان يجد من يربي الطفل له ؟ » تساءلت العجوز حوا، « ومن يربيه ؟ » قالت المرأة ذات الذقن الرفيع « الناس لايرعون صغارهم ، انظري الى حورو لقد تركت في البيت طفلا كالورد يطن هناك جائعا كالذبابة وهي تحلب ثدييها على التراب وهي هنا تحلب ثدييها على التراب لن يعيش طفل حورو ، سترى حين تعود مساء .. حليب مثل دم . »

أسندت حورو راحتيها على الارض ونهضت وهي تقول :

« ماذا أفعل ؟ قاتل الله الفقر ، اذا لا نكد ، نموت مع اطفالنا جوعاً، أو نلجأ الى ابواب اللؤماء ، أما تعرفين هذا يا اختاه ؟ لو كان الامر بيدي ... »

« انه لامر صعب - قالت العجوز حوا - باب اللئيم اكثر مرارة من الموت . »

« ولكن عينا العجوز لاتبصران - قالت ذات الذقن الرفيع - أليست كذلك ياحورو ؟ اذن كيف تدبر أمر طفلك ؟ انها ضريرة .»

« لكنها تحب الصغار - اجابت حورو - وتدور حولهم كالطير ، وهم يهدؤن عندها حتى لو كانوا على وشك الموت بكاء، انها حسيرة اطفال ،وياليتك تسمعينها وهي تترنم بتنويماتها.» قالت قره أليف :

« صحيح انها لاتدع الطفل يبكي ، لكن الذباب الاسود ينهشه ، وهي لا تشعر بذلك ، حتى يبكي . ما الذي تستطيعه امرأة ضريرة ؟ يقولون انها تمد قنينة الحليب الى عين الصغير بدلا من فمـــه . »

ثم حدقت من وراء اسماعيل طويلا وقالت :

« اين يذهب اسماعيل ؟ والى اين يأخذ الصغير ؟ من الذي سيرعاه الناس عاجزون عن تربية اطفالهم . انه زمن قاسٍ . »

قالت العجوز حوا :

« ربما سيتولى بيت خاله أمر الطفل . »

ألتفتت ذات الذقن الرفيع الى الوراء وهي منصرفة الـى رهطها ، وقالت من فوق كتفها ساخرة :

« ماذا ؟ وهل هناك امرأة في بيت خاله حتى تتولى أمر الطفل ؟ ليت الله لايدع الصغار أحياء بعد امهاتهم . »

« يالهي ـ قالت العجوز حوا ـ لماذا لم تأخذه مع أمه ؟ لماذا تركته من بعدها ؟ وهل ستعمر الدنيا بهذا اليتيم ؟ ياترى ما الذي سيفعله اسماعيل في هذا الوقت العصيب ؟ واه زالا .. »

كان السهل المترامي غارقا في ضياء باهر من وهج الشمس المحرقة ، ومكائن الحصاد تلتمع هي الاخرى ، ومن بعيد وعلى مقربة من القرية كان عمود رفيع من الغبار تراه العين بالكاد ، يرتفع وكأنه ساكن فـي مكانه . ارتاحت عينا اسماعيل اللتان كانتا تؤلمانه

بسبب العرق الناضح من وجهه حين لمح على جانب الطريق شجرة توت ذات ظلال خفيفة وقد استحال لونها الى بياض من اثر الغبار ، فعرج عليها والطفل على ذراعه وقد استطالت رقبته الهزيلة ، فارقده عند جذعها ونزع ثوبه المبتل وعصره ثم نشره فوق شجيرة عليق قريبة ، ونفض شرواله الملطخ بالطين ثم جلس ٠

كان الطفل يبكي وذباب أسود يحوم حـول وجهه ، فهشه اسماعيل بحركة قوية من يده ، واخذ يهدهده :

ز ٠٠٠ ن ياصغيري ز ٠٠٠ ســن ز ٠٠٠ـــن

لكن الطفل ظل مستمرا على صراخه ، فتناول ثوبه الرطب من فوق شجيرة العليق بحدة وارتداه ثم حمل الصغير وسار ٠

مرت شاحنة مخلفة وراءها سحابة من غبار ظلت في السماء على طول الطريق فترة من الزمن ، وحين تعداها اسماعيل تسربت الى انفه رائحة مستنقع حادة ٠ كان حقل رز اخضر شاسع يتصاعد منه البخار تحت وهج الشمس المحرقة يمتد من الجانب الايمن وحتى مشارف القرية ٠ وعلى طول الطريق كان هناك خندق مليء بماء راكد يغطي الغبار صفحته ٠ ويقف على حافة الحقل في طرفه الموازي للطريق ، حارس الماء ، وهـو عجوز محني الظهر ابيض اللحية في يده مسحاته وعلى ظهره عباءته ٠

وتبدو عن بعد حبات العرق واضحة على وجهه ٠ فصاح حين مر اسماعيل من امامه مسرعا وقد أطرق برأسه نحو وجه الطفل :

« ياعابر السبيل ، ياهذا ، انتبه ، ان رقبة الصغير متدلية .»

ثم تمتم مع نفسه حين لم يبد على اسماعيل انه انتبه اليه :

« ليت هذه البلية حلت بعدو ، انها لمصيبة كبيرة . »

دلف اسماعيل القرية دون ان يهدىء من سيره ، وكانت اكوام الروث تنتشر في الدروب والدجاج يتمرغل في التراب منفرج المنقار متهدل الاجنحة ، والكلاب ترقد وقد تدلت السنتها الطويلة الحمراء ، ولا اثر لشجر في القرية غير نباتات شبيهة بالاشواك تمتد على طول الخندق وقد انقلب لونهـا الى بياض من الغبار المتراكم عليها . وكان بيت خال اسماعيل في وسط القرية، وهو كوخ قصبي غطي سقفه بالدغل وسياجه منحن نحو الداخل، وتقف امام بابه عربة يعلو الصدأ عجلاتها وقد تشقق خشبها وحال لونه ، وتحتها يرقد كلب ودجاج وبطة مع فراخها .

من خلال الباب الذي كان مفتوحا ، كان بالامكان رؤية امرأة ضخمة ترقد لصق عتبة الباب ، ساحبة ساقيها تجاه بطنها .

وقف اسماعيل امام الباب بملامح متعبة وقد ثبت عينيه في وجه الطفل الذي كان ما يزال يبكي . رفعت المرأة رأسها ببطء فطار سرب من الذباب حولها ودكت عينها وقالت :

« من هناك ؟ لاتقف في الشمس ، هيا الى الداخل . »

ثم استعدلت في مكانها وكأنها عادت توا الى نفسها :

« من . . ؟ أهذا انت ياولدي اسماعيل ؟ »

لم يتحرك اسماعيل ، فقامت وأخذت الطفل منه .

نـ . . . سن ياصغيري ، نـ . . لاتبك

« أدخل يابني لقد أحرقتك الشمس ، السماء تصب نارا، تعال ياصغيري ، تعال ياعديم الحظ ! »

أرقدت الطفل على خرقة بالية ومسكت . من ذراع اسماعيل :

« فديتك ياصغيري ، هيا أدخل ، انك غارق في العرق . »

كانت عينا اسماعيل ساكنتين مثل قطعتين من زجاج وكانت ركبتاه ترتعشان حين جلس . حدقت المرأة فيه وقالت :

« لا تقس على نفسك هكذا ياصغيري . عليك بالصبر ، كانت زالا امرأة رائعة ولكن ما الذي نقدر عليه ؟ ما من احد يموت مع من مات يا صغيري . عد الى رشدك . هل سمعت برجل لم تمت امرأته او امرأة لم يمت زوجها ؟ هل تدري باية حال انت اصبر على ما اصابك وعد الى عملك . لقد حزن خالك مذ سمعنا بالامر قالوا : أن اسماعيل يحمل صغيره بين ذراعيه ليل نهار ولا يفارق حتى في النوم . لقد حزن خالك كثيرا . فكف عن هذا ياولدي . »

كان اسماعيل جالسا على الارض الرطبة مستندا بظهره الى حائط الكوخ وقد استطال وجهه واسودت بشرته .

« ياخالتي العزيزة ــ قال متوسلا ــ لاتدعيه يبكي .ان انينه يميتني . »

حملت جنت الرضيع بين ذراعيها ، وكان شعرها ابيض تتخلله خيوط صفراء ، وعيناها صغيرتين مشعتين وذقنها قويا مثل ذقون الرجال ويضفي طابع المتانة على وجهها ، وهي تتمنطق بنطاق من نسيج بال حال لونه وسقطت كراكيشه .

: ...ـــن ياصغيري ، نـ ..ـــن ياسيء الحظ ، : ..ـــن يايتيمتي

كانت تهدهده بين ذراعيها وهي تسير في البيت جيئة وذهابا :

« يقولون ان زالا ماتت من الاهمال يا اسماعيل ، وانت لم تعتن بها، بل يقال انك اجبرتها وهي الحبلى على نقل حزم الحصاد حتى يومها الاخير ثم تركتها تلد وحيدة في اصطبل ، وما من أحد معها يعتني بها ، وانت من تتحمل وزر موتها . هكذا يقولون .. »

امتد ظل الى الداخل وتبعته الفتاة دوندو ، وكانت أردافها الممتلئة واضحة داخل سروالها الاسود وكتفاها ضيقين وعلى شفتيها ابتسامة تكشف عن اسنانها البيض ، وكان حاجباها كثين وظلال اهدابها تسقط على وجهها الذي ترتسم عليه غمازتان لطيفتان.

أخذت الرضيع من حضن العجوز جنت وادارت ظهرها واخرجت ثديها والقمته الطفل الذي كف عن بكائه حالا . وفي الباب كان يقف طفلان عاريان في يد كل منهما سكين وفي الاخرى عود طرى ، وكان بطناهما منتفختين ورقبتاهما دقيقتين ، وهما ملطخان بالطين الذي تيبس وتشقق حتى أسفل ذقنيهما . مد أحدهما رأسه الى الدخل ثم سحبه قائلا : «ياه .. لوتراه ! »واشار الى أصبعه

الوسطى قائلا : « أن رقبته دقيقة مثل هذه •• » وتطاول الثاني وحدق ايضا :

« صحيح انه لكذلك •ان رقبته مثل قشة والاخت دوندو ترضعه•»
« انها رضاعة كاذبة حتى يكف عن البكاء • وهل للفتيات حليب ؟
امي قالت ان ذلك غير ممكن • انها رضاعة كاذبة • »

« لتكن كاذبة ، لكن الرضيع ساكن ، وهو يرضع ! »

وأنصرفا مبتعدين وهما يبريان الغصنين اللذين في ايديهما•»
« هكذا يقولون يا اسماعيل ــ قالت العجوز جنت ــ يقولون انك أغلقت الباب على المرأة النفساء وطفلها ، وذهبت الى الحقل دون ان يكون معهما أحد يمدهما بجرعـة ماء • هكذا يقولون يا اسماعيل ، فاذا كذّبهم واحد" فهناك ألف يصدقهم ، وافواه الناس ليست فتحات اكياس يمكن سدها • انهم يتساوون دائما بمحن الاخرين • يقولون ان المرأة النفساء كانت تدور في الغرفة المظلمة عارية مثل مجنونة وطفلها في حضنها ليتحمل القائل وزر قولته•يقولون انها جنّت من مرضها ، نعم يا صغيري اسماعيل••»

انفجر اسماعيل بغتة بعد ان كان يبدو ذاهلا عـن حديثها :
« فديت عينيك ياخالة •• »

كان يتحدث بضراعة ولكن نبراته كانت شديدة وغاضبة :
« فديتك ياخالة ، هل يعقل ان اسيء الى زالا • لقد كانت عماد بيتي ، ليتقول النـاس بما يشـاؤون ، ولكن لـو تعرفين مـا اعانيه ، ان فؤادي يحترق كالجمر ولن يدعني حزن زالا حيا •

ماذا أساوي من بعدها ؟ هل يمكن ان اعثر على مثيل لها ؟ تعالي واستخبري دواخلي •»
قالت العجوز جنت وقد اغرورقت عيناها :
« أجل لم يكن لزالا مثيل ، اين يوجد مثلها ؟ لقد كانت فريـدة ورحلـت •• »

« يا خالتي — قال اسماعيل وعيناه نصف مغمضتين وقـد اختلط سوادهما ببياضهما — أقبل قدميك ، لا ذنب لي فيما حدث قلت لها « يا زالا يا أمرأتي العزيزة ، لا تذهبي الـى الحقـل ، وما بقي من العمل سأقوم به بنفسي ، سأنقل الحزم لوحدي • » لكنها لم تصغ الى كلامي ، بل اجابتني :

« كنت انتظر هذا اليوم بفارغ الصبر حتى اعمل في محصولي واتخلص من العمل فيحقول الاخرين، وسأظل اعمل حتى لو تهشمت عظامي او متُ • ولقد تخلصتَ انت الاخر في هذا العام من العمل كأجير في بيوت الاخرين ، وكنا ننتظر هذا اليوم منذ سنين • » وقالت « ان الشركة أفضل من العمل كأجير • فاذا كان نصـف الحاصل لهم فالنصف الاخر يبقى لنا • » وحاولت الكثير معها لكنها أبت البقاء في البيت ، وكان الحزن يقتلني وانا اراها هكذا ، وكنت أقول لها : « لاتفعلي هذا بنفسك يازالا •• » فكانت تجيبني باصرار : « لقد انتظرت هذا اليوم طويلا وكنت اقول دائما : ياترى هل ارى ذلك اليوم الذي سأكدّ فيه في محصولي الخاص ؟ لقد ذقت مايكفي من البؤس والهوان وانحنى ظهري في بيوت

الاخرين بعد ان مات ابوي ايضا في تلك الابواب كنت انتظر هذا اليوم متلهفة • » هكذا كانت تجيبني • وكان يوما قائظا حتى ان الطيور كانت تهوي من السماء وقد انفرجت مناقيرها من شدة الحر ، وكنا ننقل حزم الحصاد والشمس مثل مسامير مغروزة في رؤوسنا • وكانت على ظهر زالا حزمة كبيرة يعجز عن حملها شخصان معا • وحين قلت لها : « لا تحملي مثل هذه الكمية » اجابتني انها كانت تنتظر هذا اليوم ، ودمعت عيناها • وفي منتصف الطريق الى البيدر شاهدتها وقد ألقت الحزمة عن ظهرها ، فهرعت اليها وسألتها عن الامر • قالت : « انه الطلق وقد اشتد عليّ • انه مغص قاتل ، اشعر به وكأنه طعنات سكين • ساصل البيت فلا تخشى عليّ ولاتكف يدك عن العمل حتى لاتجعل رزقنا من نصيب النمل • » وهرعت وهي تشدّ على بطنها بيدها ، لكنها هوت على الارض فلحقت بها فقالت : « لاتجعل رزقنا نصيبا للنمل اني ذاهبة » عدت مساءً فوجدتها راقدة وبجانبها وليدها وقد قطعت حبله السرّ بنفسها بمقص عتيق ولفته بقطعة خام • وقالت حالما رأتني :

« لقد اصبحنا اصحاب محصول بعد طول انتظار فلاتتلفه بسببي،سأدبر أمري بنفسي• »فاذعنت لألحاحها وعدت الى الحقل• »

قاطعت العجوز جنت اسماعيل ، وهي تنشج قائلة :

« لقد نشأت في بيوت الاخرين ، يتيمة ومعدمة وفضلت مالها على روحها ولم تذق السعادة يوما •• واه زالا •• »

« لم تغادر الفراش لاسبوع ـ واصل اسماعيل حديثه ـ قلت لها « يازالا لايمكن ان يستمر الحال هكذا ، انك لن تشفين وانت ترقدين هنا ، ستموتين جوعا وعطشا في هذا المكان العاري .» وكان وجهها أصفر مثل الشمع وقد برزت عظامها . قلت لها : « سأبقى الى جانبك وسأخذك الى الطبيب ، سأفديك بروحي ومالي . » لكنها بكت وانتحبت وقالت انها ستكون على مايرام في الغد ، ودفعتني الى العمل وظلت وحدها تغالب جوعها ومرضها في حظيرة زكي اغا المظلمة . ولولا الاغا لكنت أقنعتها لامحالة ، لكنه صاح في وجهي وشتم وهو يقول : « لقد جعلتك شريكا في المحصول بدلا من أن تعمل باجر ، فلا تتلف مالي في الارض .» وكنت اعود كل مساء واتوسل اليها : « يا زالا ، لقد ساءت حالتك اكثر فدعيني أمكث الى جوارك وارعاك او آخذك الى طبيب . » لكنها كانت تقسم باغلظ الايمان كل مساء بانها قد تحسنت بعض الشيء هذا اليوم وانها ستهب من الفراش معافية غدا . واعود في المساء فاجدها ما تزال راقدة كما كانت . وهكذا مر عشرون يوما هزلت فيها وغارت عيناها وانقلبت الى مايشبه الخيط ، وايقنت ان المرأة مائتة لا محالة فلم أعد أحتمل واتخذت قراري . »

تخلى اسماعيل عن طوره السابق ، فاشتدت نبراته وارتعشت شفتاه وتحكم في صوته الذي ارتفع بعد ان كان أشبه بالغمغمة : « ذهبت وواجهت الأغا وقلت له : ياغا ، ان زوجتي تموت ولابد من اخذها الى طبيب . فضحك وقال : يااسماعيل ، انهن يرقدن ويرقدن ثم يهبن معافيات ، انهن لسن بحاجة الى اطباء . ان

اجسادهن من حديد فلا تقلق وعد الى عملك • قلت له : كلا ، ليكن كل ما املكه حلالا لك كما هو حليب امك • قطني وسمسمي وحنطتي اعطني خمسا وعشرين ليرة فقط • فاعطاني المبلغ ، واجرت عربة وأخذتها الى المدينة ، ولكنني لم اعثر فيها على الطبيب فقد كان ذاهبا الى المصيف • وبحثت في المدينة من أقصاها الى أقصاها عن طبيب اخر فلم اعثر الا على مضمد من اولئك الذين يوزعون الكنين ففحص زالا ، لكنها كانت في نزعها الاخير مال وهمس في أذني : انها تحتضر قلت له : لا عليك ، كان هذا متوقعا فازرقها بابرة • فقال انني لا أعالج من في نزعه الاخير ، ما الفائدة من ذلك ؟ فوضعت النقود امامه وقلت له : هاك هذه النقود ، وازرقها بابرة ، اليس كل شيء باجره ؟ اريدك ان تزرق تلك الشجرة بابرة ، اريدك ان تزرق بها بغالي • أزرق المراة بابرة ياأخي ولاتجعلها حسرة في قلبي ، وحتى لايشتم الناس أمي وزوجتي • افعلها تجاه الصديق والعدو • فزرقها بأبـرة ، وطلبت منه أن يزرقها بثانيـة وثالثة • ان لزالا علـيّ فضـلا كبـيرا • وكـان الرجـل أميـنا ففعـل مـا أمـرتـه بـه • لقـد كان جلـدها ملتصقا بعظمهـا • أجـل ياخـالة ، هكذا كانت زالا وما كان يمكن تصديق ذلك حتى ولو شاهدتيها بعينيك • ثم اخذنا طريقنا للعودة في شدة الظهيرة ، وقلت مـع نفسي : اذا كانت زالا ستموت ، فلتمت في بيتها على الاقل • وكان الحر لا يحتمل وكأن نارا شبت في الكون • واذ وصلنا الى منتصف الطريق ، اعتدلت زالا في مكانها وهمت ان تقول شيئا ، لكنهـا

عجزت ومال رأسها الى الوراء ، وسمعتها تغمغم بضعف :

« ألف عام .. طفلي .. »

قالت العجوز جنت :

« أجل ، لقد بدأت المسكينة تكد في محصولها الخاص بعد سنين طويلة من الانتظار لكنه لم يكن من نصيبها . واه .. واه يازالا .. »

واصل اسماعيل حديثه :

« لاحظتها وقد زاغت عيناها وتقطعت أنفاسها والطفل يرقد في حضنها . وكانت الشمس قد احـرقت يافوخي وأسـودت الدنيا أمام عيني وغبت عما حولي ولم ادرك ما حدث بعد ذلك . وحين أفقت وجدت نفسي ملقيا على الارض والالم يغطي جسدي ولا أثر للعربة ومن فيها ، فاسرعت الخطى في القيظ وانا اقول : لو أن البغلين اخذا العربة واسقطاها في هـاوية ! فاذا كانت زالا قد عدمت الراحـة في حياتهـا فعلى الاقل لا تبتذل جثتها . وهنـاك الطفل .. قلت انـه سيموت لامحالة ، ولكن طعامـا لسباع الارض والجو . سيموت حتما . وهل يعيش طفل بدون أم ؟ الناس لا يدعون من له أمه أن يعيش بسلام فكيف بالذي لا أم لـه ؟ كنت أركض وأحدق فيما حولي اذ ربما كان الطفل قد وقـع . حتى وصلت الى جمهور من الناس وقـد احتشدوا وسط قرية لم يسبق أن مررت بها . وكان الزحام شديـدا حتى

لو قذفت بابرة لما وقعت على الارض • وتناهى الى سمعي حديث عن ميت • فاخترقت الزحام ووجدت العربة واقفة بينهم والطفل في حضن أمه مغمض العينين يغطي وجهه الغبار ، والنسوة يبكين • فصعدت الى العربة وقدتها دون ان يعترض أحد أو يسألني من انت وما علاقتك بمن فيها والى اين تذهب بهما • قطعا لم يتفوهوا بشيء ، بل ظلوا في اماكنهم يحدقون من ورائي •

بقي الطفل على عاتقي في موسم العمل هذا ، فاخذته الى امرأة مرضعة تدعى صاري قيز في احدى القرى الشمالية ، لكنها أعادته بعد يومين مدعية ان حليبها غير كاف وانها لن تقتل طفلها من أجل طفل غريب كهذا • ولم أدع امرأة مرضعة في هذه الانحاء الا واخذته اليها ، لكنهن اعدنه الي ثانية • وهكذا غلت يداي عن العمل • انه لا يموت حتى يريح ويستريح ، وهو لا يرضع حليبا أو يلقم مصاصة • انه لطفل عجيب • فاضطررت أن أعمل باحد ذراعي واحمله بالاخر وهو يطن مثل زنبور • انني حائر •• ماذا أفعل ؟ •• »

اعتدل اسماعيل في جلسته وكان طويل القامة حتى ان رأسه يكاد ان يلامس دغل السقف • ثم أستند بظهره الى الوراء وقال :

« وهكذا ترين ، انت امه الثانية فافعلي به ما تشائين • انه لوقت حرج وقد تفاقم الامر علي •»

كانت العجوز جنت مطرقة ، فرفعت رأسها ببطء وقالت بصوت مرتعش وكأنها على وشك البكاء :

« اسماعيل ••• »

« ماذا يا خالة ، قولي ما تودين قوله • »

« اسماعيل ، ان ما كانت زالا تريد قوله هو : لقد تخلصنا من بيوت الاخرين بعد طول انتظار واخذنا نكدح في عملنا الخاص ، ولم أدرك الراحة • فأعتن بطفلي جيدا يا اسماعيل •• »

« أجل ، لقد كانت تردد هذا دائما : بعد طول انتظار •• بعد طول انتظار •• كانت وكأنها جنت من فرحها لاننا تخلصنا من بيوت الناس • لكنها لم تدرك الراحة ولم تعمل في حقلها كما كانت تتمنى • كانت تكره العمل للاخرين ، لكنها ماتت وهي تعمل عندهم • فافعلي ما تشائين بهذا اليتيم ، فانت أمه الثانية • »

أقتربت الفتاة دوندو من العجوز دون أن تبعد الطفل عن ثديها وقد أحمر وجهها كاللهب ، مالت وهمست في اذنها :

« خالة جنت ، أشعر بشيء لذيذ يسري في جسدي كلما أرضعت الطفل ، ليته يرضع حتى المساء • بل ليت عشرة مثله يرضعون •• »

ثم تمطت ببطء ورددت : « انه لشيء لذيذ •• »

« اينها المجنونة ـ قالت العجوز جنت ـ كلنا نشعر كذلك •• »

عاد خال اسماعيل الى البيت مساء ، وهو متوسط الطول والضخامة ، وقد لوحت الشمس وجهه الذي غطاه الغبار ونثار التبن •

« يااسماعيل – قال الخال – يقولون انك جننت وان الصغير لا يفارق حضنك ليل نهار •• »

ثم غير الشيخ حديثه بايماءة من زوجته :

« هكذا اذن يا اسماعيل ، لقد حزنا لهذا الامر كثيرا • »

« يا رجل •• قالت العجوز جنت – ابعث الى موسدولو ليأت • ان لزوجته حليباً غزيراً ، وهناك أمينة العرجاء وحورو ، لكن الاخيرة البائسة هذه لاتعتني حتى بطفلها • اما زوجة موسدولو فحليبها غزير وهي نظيفة ايضا • ورضت ان ترضع الطفل اذا ما وافق هو على ذلك ، فابعث بصبي ليستدعيه • »

دخل موسدولو بعد فترة مع الصبي الذي ارسل في طلبه ، ومنديل أحمر بحجم راحة يد مثبت في جيب صدر سترته الزرقاء الداكنة • وكان قصيراً مرتب الشعر ، وقد برزت خصلة منه من تحت قبعته الجديد ، وكان يرتدي سروالا وحذاء جديدين ايضا •

مسك الخال بيده وأجلسه لصقه •

« ياابني الجميل موسدولو •• » قال ثم أشار الى الطفل الذي كان يبكي قرب العمود الوسطي للكوخ « ها انت تراه ، ليحفظ الله العالمين من مثل هذه المصائب • ان الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، فلترضع زوجتك هذا اليتيم مرة او

مرتين في اليوم ، ولن يبخل اسماعيل عليكم بشيء • وستثاب على هذا • وقد قيل : اعمل حسنة وألقها في البحر فاذا لم يعلم بها السمك ، فالخالق يعلم •• فاعمل هذه الحسنة •• »

كان موسدولو صامتا ومطرقا وقد زمّ شفتيه الرقيقتين • فأستمر الخال قائلا : حتى ولو كان قلبه قدّ من حجر • ثم ان اسماعيل رجل شجاع ولقد تخلص من العمل كأجير فلا تتركه يفقد كل شيء بسبب هذا الصغير •

ماذا تقول ياموسدولو ؟ ألا تجيب يابني ؟ »

لم يغير موسدولو من وضعه • فاضاف الشيخ قائلا :

« لا تسنح فرصة الاحسان دائما ، سيرضى الله عنك ، وستفتح ابواب الجنة بيدك اذا ما وافقت يابني • سيموت هذا الطفل اذا لم ترضعه زوجتك • انظر اليه انه لا يكف عن البكاء ، فاي قلب يتحمل هذا ؟

نهض موسدولو من مكانه ومشى خارجا حتى اذا ما تعدى باحدى قدميه عتبة الباب ، التفت الى الوراء قائلا :

« ياعم ، من الذي أخبرك ان زوجة موسدولو خادمة ؟ ان زوجتي ليست خادمة ! »

ثم خرج معتدا •

انتفض اسماعيل من مكانه ومدّ يديه من وراء موسدولو متوسلا :

« ياأخي •• يا اخي لا تفعل هذا السوء •• »

شدّه خاله من ذراعه قائلا :

« ياهذا ، لاتتوسل الى كلب كهذا ، حتى ولو كان من اجل الحياة ! لقد انقلبت امرأة ، ما الذي أصابك ؟ ليمت •• »

ثم أشار الى زوجته :

« انظر اليها ، لقد دفنت ستة عشر ابناً لها ، جميعهم فتية أصحاء وليسوا صغارا مثل طفلك • »

قالت العجوز جنت :

« عد الى رشدك يابني ، انه مجرد رضيع لاغير • طفل لم يبلغ الشهر الواحد من عمره بعد••ستتزوج ثانية وسيرزقك الله بغيره• فليمت اذا كان سيموت • لقد دفنت ستة عشر ابنـــا فكيف تحملت أنا ؟ سيرزقك الله ثانية فلا تحزن ياصغيري ، ستمرض في هذا الصيف ، فلا تتلف نفسك في وقت العمل هذا • »

كان وجه اسماعيل جامدا مثل جدار•اما العجوز جنت فقد تغيرت سيماؤها واخذت طوراً جاداً وقالت تحدث نفسها : « حسناً ، أمينة العرجاء واحدة ، حورو اثنتان • العرجاء واحدة ، حورو •• لاغيرهما • لكن حليب العرجاء مسموم ولا يعيش لها اطفالها ، وهي تلد كل عام ويموت صغيرها قبل ان يكمل شهره الاول • فكيف اسلمها هذا الطفل ؟ اما حورو فقد هدّها الفقر وهي غافلة حتى عن طفلها الذي اصيب بالاسهال من تناوله الحليب الحـــار

باستمرار ، ولا أحد لها غير العجوز العمياء ، فكيف تقدر ضريرة
ان تعتني بطفل ؟ آه ياأماه ٠٠ »

« ياامرأة ـ قال الخال ـ لماذا تونين هكذا ؟ ليس هناك غير أمينة
العرجاء سواء أكان حليبها مسموما أم لا ٠ فلنعطه لها ٠ »

اعترضت العجوز قائلة :

« ياهذا ، هل يمكن قتل الطفل امام انظارنا ؟ أهو مصاب بوباء
حتى تتخلص منه ؟ »

قال اسماعيل بحدة :

« ياخالة ، لنعطه لها اذا كانت تقبل حتى لايموت جوعا ويلعن
الناس زوجتي ٠ انظري الى مانحن فيه ، وليمت اذا كان
سيموت لكنني لااتحمل موته من الجوع ونحن نحدق فيه٠٠»

بعثوا بصبي الى العرجاء فجاءت وهي تجرجر احدى ساقيها،
فقد كانت مشلولة في احد جانبيها حتى ان المرء كان يحار كيف انها
لاتنقلب الى جانبها ذاك حين تظل واقفة ٠ وكانت ترتدي سروالا
اسود متهرئا ، يتفتت الى قطع صغيرة لو سحب خيط واحد منه
ولولا سعة اردافها لانحدر السروال على قدميها ٠ وكانت ثيابها
مغطاة بالتراب وغبار الطحين وتتف العجين ، وثدياها سوداوان
ضامرتان تتهدلان من فتحة ثوبها البالي ، وكان وجهها قذرا وقد
برزت الشامات الكبيرة عليه مثل حلمات الاثداء او نهايات الاصابع
وقفت امام الخال وقالت :

« لقد أرسلت في طلبي ياولي اغا ، ها انا قد جئت • »

« يابنيتي ــ قال الخال ــ لقد طلبتك لترعين هذا الطفل ، وسيجعلك اسماعيل ممتنة ، انك ستنقذين روحا بشرية • أهي قليلة هده الحسنة ؟ ستنالين ثوابك عند الله وعند اسماعيل •

ماذا تقولين يا أبنتي ؟ »

« اختاه ، اختاه ياامينة ــ قال اسماعيل متوسلا ــ سأعطيك كل ما تطلبينه ، حتى ولو طلبت حليب عصفور •• »

تغضن وجه أمينة وقتم اكثر وقالت :

« ياولي اغا ، ان حليبي لايكاد يكفي صغيري ، ماالذي آكله حتى يصير حليبا ؟ »

اعتدل اسماعيل في مكانه وقال :

« انظري يا اختاه ، لو طلبت حليب عصفور لجلبته لك • ماذا تقولين ؟ هل توافقين ؟ »

قالت أمينة :

« ماذا أقول ياأخي ،ليعد زوجي مسا ء •• »

وأنصرفت دون ان ترضع الصغير الذي كان ملقى على الارض يبكي • وعادت البنت دوندو راكضة ورفعت الصغير وادارت ظهرها وبدأت ترضعه فانقطع بكاؤه •

حليب عصفور : كناية عند ندرة الشيء

«آه من أمي!» قالت الفتاة متذمرة «انها لا تدعني اترك البيت قط ، وتجد لي اشغالا من تحت الارض ! »

كان نقيق الضفادع يملأ سكون الليل وتوقفت الريح الغربية التي كانت قد بدأت عصراً ، وكان الهواء يفوح برائحة رطوبة وروث والسماء كثيفة وشاسعة ومغطاة بالنجوم • وعلى بعد من بيت الخال ولي كانت هنالك شجرة دلب ضخمة قائمة على حافة مرعى ، تصطف على أغصانها ليلا أعداد كبيرة من اللقالق البيضاء التي تسمع اصواتها مرات عديدة • وقبالة البيت كانت هناك سقيفة بارتفاع قامة انسان ، ترقد حواليها ثيران القرية •

كان الطفل يبكي الى جانب العجوز جنت الراقدة في الجانب الايمن من السقيفة التي كانت تتأرجح كلما هزت العجوز المهد وكان الخال يغط في نومه وهو يشخر والمكان يعج بالبعوض • وسرعان ما انقطعت حركة المهد ونامت العجوز ايضا • وكان الليل قد تعدى منتصفه منذ وقت طويل والطفل لايكف عن بكائه • فتقلب اسماعيل في مكانه حانقا عدة مرات فاهتزت السقيفة ثم قال بصوت خفيض يكاد لايسمع :

« خالة ، خالة جنت •• خذيه الى أمينة العرجاء ، انه يميتني ببكائه خذيه •• » نهضت المرأة وهي تدعك عينيها ، ويبدو انها لم تكن نائمة بعد ، واخرجت الصغير من المهد •

ما أن تلتقي أثنان من نساء القرية في الطريق أو الحقل أو حين يسقن العجول او يخطن الثياب ، حتى تكون أمينة العرجاء وطفل اسماعيل موضوع حديثهن •

كانت مجموعة منهن يغزلن الصوف ويثرثرن وهن واقفات امام باب قره أليف :

« أواه يا أختاه ، هذا هو الحظ الذي تتحدثين عنه • لقد أصبح موت زالا نعمة على العرجاء القذرة •»

« نعم يا اختاه ، لو أعتنت بالطفل لما تأثرت ، لكن الصغير يظل يعوي مثل جرو من الصباح حتى الليل وهي تلتهم ما يجلبه اسماعيل من سكر وسمن وزبيب •• لقد تحول بيتها الى حانوت • » •

« نعم يا أختاه ، لقد تحول الى حانوت ! »

« لو تعتني بالطفل •• »

« لا أود المرور من بابها ، فصوت الصغير وهو يبكي لايمكن تحمله، انه يعوي من الفجر حتى المساء مثل جرو •• »

« ياللصغير البائس •• »

« لو تشاهدين حال اسماعيل ! »

« لا يمكن تحمل ذلك • »

« لقد شحب وجه المسكين وذبل •• »

« لا يمكن تحمل ذلك ! »

« سينفق كل مايملكه على العرجاء وسينقلب الى كلب من العمل
كأجير ثانية • »

« أجل سينقلب كلبا •• »

« لن يعيش الطفل • »

« سيموت •• »

« بدلاً من ان تربيه العرجاء •• »

« ليتركه فوق شجرة حتى تتلقفه النسور • »

« ليرمه في المـاء • »

« ليدفنه حيا • »

« نعـ ••• ـم يا أختاه ! »

« بين يوم واخر وهو يأت حاملا كيسا على ظهره • »

« انه يقول : لتأكل المرأة حتى يكثر حليبها • »

« وهو يظل جالسا لصق المهد ، يحدق في وجه الصغير صامتا • »

« أبـوة •• »

« قلـب •• »

« بدون أم • »

« لن يعيش طفل بدون أم • »

« تعب اسماعيل هباء • »

« حليبها مسموم ••• »

« والا لعاش لها أطفالها . »

« لن يعيش ! »

لم يمر غير عشرة ايام على حضانتها للطفل حتى بدأت امينة تحدث كل من تلقاه من النساء :

« أواه ايتها النسوة ! لم يسبق ان أبتليت بمثله ، لقد رمـوه عليّ ويا لكبر بطنه الذي لايشبع قط . وبسببه أهملت اطفالي ، حتى ان صغيري دوران اصيب بالاسهال ويتغوط ماء . سيموت قطعا بسبب صغيرهم هذا ، سأعيده الى ابيه ولا ارغب فيما يجلبه لي . وماذا يجلب ؟ أقتل اطفالي من أجل كيلوين من السـكر . كيلوين سكر منذ عشرة أيام! نعم يااخواتي،كيلوين من السكر .. »

«خذيه ــ قالت النسوة ــ خذيه والقي به على العجوز جنت . »

التفتت النسوة الى بعضهن بعد ان انصرفت عنهن أمينـة العرجاء مجرجرة ساقها ، واخذن يثرثرن بينهن ..

« لن يعيش الطفل .. »

« لتأخذه وتلقي به عليه .»

« انه يعوي طوال اليوم مثل جرو .»

« لتأخذه وتلقي به عليه . »

أختنا غير راضية عما يجلبه المسكين ! »

« بدأت تكفر بالنعمة . »

« كيلوان سكر !وهل امتلكتِ هذه الكمية منذ ان ولدتكِ أمكِ ايتهاالقذرة ؟ »

« هيه ، امتلكت •• ! »

« لا يستحق المسكين هذا ، انني أشفق عليه • »

« لتأخذه وتلقي به عليه • »

« لتأخذه وتلقي به عليه • »

« لتأخذه وتلقي به عليه • »

بعد اثني عشر يوما من حضانة أمينة العرجاء للطفل ، جاءها اسماعيل ثانية وعلى ظهره كيس مملوء حتى نصفه ، وقصد بيتها دون ان يعرج على بيت خاله • وكان بيت أمينة عبارة عن كوخ صغير طلي وسياجة المبني من القصب بطبقة خفيفة من الروث وغطي سقفة بدغل قديم متيبس ، ولا يحوي في داخله غير ثلاثة اكياس ممتلئة ومسندة الى ركن منه • وفراش بال برز قطنه • وفي ركن آخر تفوح منه رائحة روث وبول ، ربط عجل صغير ووضع بالقرب منه مهد عتيق يضم الصغيرين لصق بعضهما ببعض وقد تشابكت اياديهما المضمومة ، وكانت ارضية البيت مطينة وتنز ماء • وافاءان خشبيان تغطيهما الاشنات ينضحان ماء وموضوعان اسفل نافذة لايتجاوز طولها الشبر الواحد •

وقف اسماعيل امام المهد طويلا وهو يتأمل ما فيه • ثم قال بألم : « اختاه ياأمينة ، ماالذي أصاب هذا الطفل ؟ »

كان الطفل هزيلا جدا وعيناه غائرتين • ولم يطق اسماعيل منظره فخرج •

هزت أمينة الكيس قائلة :

« انظري يا اخت أليف ما جاء به • انظري الى مكسور الرقبة
هذا الجمل الذي يتحدث بغرور ويسأل ما الذي أصاب
الطفل • بكيلوين من السكر أربي طفله ! اللعنة على امواتك
يا مكسور الرقبة •»

كانت تخرج الحاجيات من الكيس وترميها هنا وهناك قائلة:

« سيموت طفلي ، انه مصاب بالاسهال ، سيموت ولن ينقذني
شيء من ألسنة الناس •»

« ألقي به عليه ياأختاه _ قالت قره أليف _ القي به عليه • »

« سيموت طفلي وسيقول الجميع انها باعت طفلها بطفل غريب • »

اعتدل اسماعيل في جلسته التي كان يستند بها الى السياج
وتحسر من بين اسنانه بصوت اشبه بالفحيح :

« أوف اينتها العاهرة ، اينتها العاهرة العرجاء ••• » وانصرف
مترنحا كالسكران •

وجاءت أمينة بالطفل بعد يومين وألقت به على العجوز جنت
وهي تصيح :

« ما الذي سيقوله الناس لو مات طفلي ، ما الذي سيقولونه ؟ »
وبعثت العجوز بالطفل الى ابيه •

كان البيدر قائما على ارتفاع قامة انسان ، وكان الوقت
ضحى واسماعيل منهمك في عمله الذي بدأ به قبل طلوع
الفجر • ألقى المذراة على الحزم ورفع المشربة الموضوعة في
ظل البيدر الى فمه • وكان صبي ناحل العود طويل الاهداب

جالسا على النورج وهو يضرب البغلين المشدودين امامه، بعصاة ويدور بها مسرعا فوق الحزم التي لم تدرس بعد ، بينما كانت رائحة التبن والعشب المتيبس تملأ الجو •

دفع اسماعيل بقنينة خمر مملوءة بالحليب وقد غطت فوهتها بمصاصة الرضاعة الى فم الطفل الذي كان يبكي وهو ملقى في ظل البيدر • فتوقف عن البكاء واخذ يرضع بهدوء • وكان اسماعيل يجلس مسندا ركبتيه على الارض وقد أخفى غبار التبن ملامح وجهه وملأ اثر الجرح الغائر الطويل والممتد نحو ذقنه في صفحة وجهه اليسرى • وكان ثوبه العتيق المخطط مفتوحا يكشف عن صدره المغطى بالشعر والعرق • فنزعه ونشره ثم عاد وجلس ومسك بالقنينة وهو يتنفس عميقا مثل منفاخ ، ونادى على الصبي الذي كان فوق النورج :

« محمد ، تعال وتناول طعامك • »

فادار الصبي رأسي الحصانين تجاه مركز البيدر ، واوقف النورج وجاء وفتح صرته • وكان اسماعيل يأكل بيد ويمسك قنينة الرضاعة بالاخرى ، والطفل يعود الى بكائه كلما أنفلتت المصاصة من فمه • اما محمد فكان يأكل ويتحدث معا :

« انظر يا عم اسماعيل ، كان في قريتنا ولد مثل هذا ـ واشار الى الرضيع ـ ماتت أمه ايضا وظل أبوه يدور به في حضنه ولم

يرغب أحد في حضانته لفقرهم • هكذا قالت امي • وكان الطفل على وشك ان يموت من جوعه في حضن ابيه وهو لا يتوقف عن البكاء • هذا الولد يدعونه الان بابن الكردي• أمي تقول انه ليس بابن كردي ولا شيء •• كل ما في الامر انه في احدى الليالي لفه ابوه بقطعة من شوال وتركه فوق صخرة الينبوع في وسط القرية ثم ذهب • فالتقطته امرأة كردية وربته ، وهم الآن يدعونه بابن الكردي • اما أبوه فلم يعد ثانية الى القرية واختفى له كل أثر • أنا لا أعرف ولكن أمي تقول هكذا • » هب اسماعيل من مكانه فجأة واذ خرج الى دائرة ضوء الشمس ألتمع نثار التبن الملتصق بشعر صدره • وتناول ثوبه وارتداه بسرعة ثم حمل الطفل بين ذراعيه وانصرف •

أدارت العجوز العمياء وجهها شطر الباب اذ سمعت وقع اقدام قادمة وصاحت :

«من هذا ؟ أهناك طفل في حضنك ؟ أليس هذا صوت طفل؟»

« أنه انا •• انا يا اماه • » أجابها اسماعيل

« اعذرني ، لم اعرفك من صوتك يا بني • »

« أنا يا اماه ، أنا أوشار اسماعيل ، الفلاح السابق لدورموش اغا » ••

«أهذا انت يااسماعيل ؟ ــ قالت العجوز العمياء بصوت باك وحزين ــ لقد حزنا على زالا ، لم تذق المسكينة الراحة • ليت العرجاء

القذرة ذهبت فداء لطفلك يقولون انها أعادته اليك . اهذا صحيح؟ آه لو كان ابني هنا ! ولو لم تذهب حورو الى الحقل . لكنت أبقيت طفلك عندي ورعيته من اجل زالا العزيزة . الطفل ما يزال يبكي في حضنك يابني ، أرقده في المهد الى جانب طفلنا . هل أرقدته ؟ ذ .. ن ، ذ ... ن ايها اليتيم الصغير ، ذ ... ن . »
« اماه ـ قال اسماعيل ـ متى يطلق سراح محمود ؟ »

« ذ ... ن ، ذ .. ن دللول .. ذ .. ن » وقالت بحدة وهي تهز المهـد :

« آه يابني ، هل تتخلى الحكومة عن حقها ؟ ذ .. ن ذ .. ن لم اسمع انها فعلت ذلك يوما وقد بلغت هذا العمر ذ ... ن ايها اليتيم الصغير .. ذ .. ن ، لقد تراكمت علينا ضريبة الطريق يا اسماعيـل وهي تطالبنا بـها ، ذ .. ن ايهـا المسكـين ، ذ ... ن ، تقول الحكومة ليعطني حقي وسأخلي سبيله والا سوف ابقيه في السجن حتم يموت ، ذ .. ن يامن بقي في ايدي الناس ، ذ ... ن ، وهو ليس بمبلغ يسير يا بني ولا يمكن تدبيره بسهولة .. ذ .. ن يا يتيمي ، ذ .. ن ان حورو وحدها التي تشتغل ، ماذا يجدي عمل امرأة ؟ ذ .. ن يارضيع زالا قلت لاذهب واقبل يد الحكومة وقدمها . قالوا ان هذا لا يجدي . انها تريد النقود فقط . ذ .. ن ياسيء الحظ ، دللول .. ذ .. ن . »

كان الكوخ نظيفا وقد غطى سقفه بدغل خفيف يسرب ضوء الشمس ،وكان صغيراً لايستوعب اكثر من فراشين لصق بعضهما ببعض وكانت العجوز العمياء جالسة في واجهة الباب ووجها ناحية مصدر الضوء ، وهي تهز المهد وتترنم :

« نن •• نن ، يتامى الام يبكون هكذا دائما • ن •• ن ، ن ن • اواه انا الاخرى مريضـــة ، يبدو يومي قد قرب • منـــذ ان ذهب محمود والحمى تعاودنـــي كـــل يـــوم • ن •• ن ، ن ن ، ن ن ، دللول ن •• ن • انها حمى شديدة وحالتي تسوء ولن اشفى • ن •• ن ياوردتـــي ، ن •• ن يازهـــرة الجبال الجميلة ، ن •• ن لا تبك • آه لو كان محمودي هنا ، هل كنت أدع طفـــل زالا في ايدي الاغيار ؟ ن •• ن ، ن ••• ن • »

كفت عن هز المهد وسألت :

« في أي جانب أرقدته يااسماعيل ؟ ايهما طفل زالا ؟ »

مسك اسماعيل بيدها ووضعها على الطفل •• فمررتها على وجهه بحنو وهي تقـــول : « واه يا يتيم زالا ! لم يبـــق منه غـــير جلد وعظم ، ن •• ن ، جلد وعظم ، ن •• ن • »

عادت حورو الى البيت مع غروب الشمس ، وعرفت بالامر حالما دخلت من الباب • كانت العجوز ترقد في ركن وهي ترتعش وتتأوه من الحمى التي عاودتها مثل كل يوم ، واسماعيل جالس قرب المهد يهزه •وكانت حورو في العشرين من عمرها وقد لوحت الشمس وجهها قالت :

« ماذا اقول الآن ؟ ماذا أقول لك يا أخ اسماعيل ؟ ان قلبي يذوب حزنا وان ثديي ينتفخان حتى المساء ولا أرضعهما لطفلي بل أحلبهما على التراب . ماذا اقول لك الان يا أخ اسماعيل ؟ لو كان محمود هنا .. »

قال اسماعيل :

« أختاه ، أختاه يا حورو ، سأفعل كل ما تريدينه . سأدرس بيدرك حالما انتهي من بيدري . انت املي الاخير . »

قالت حورو :

« اماه ، ماذا تقولين ؟ وماذا اقول الان ؟ »

قالت العجوز وهي تتأوه :

« يا بنيتي ، يا بنيتي ذات الشعر الذهبي والعيون السود هل يمكن ان ندع الصغير يموت امام انظارنا انه سيموت لا محالة . ماذا أقول ؟ انه رضيع زالا .. رضيع زالا .. »

حملت حورو شعر اسماعيل وهو يغادر البيت ، بان ثقلا قاتلا قد أنزاح عن كاهله . الطفلين ، كل واحد على احدى ذراعيها وهي تسير وخلفها العجوز تشبث بحزام سروالها . وبدأ الشفق يلوح خفيفا حين وصلنا الحقل . فارقدتهما الى جانب بعضهما بعد أن سوت العشب لهما . واجلست العجوز العمياء لصقهما . وباشرت عملها في الافدنة الخمسة التي تعود لهم ، وكان يتعذر تمييز بنات القطن من العشب في الظلمة الخفيفة . وهوت بالمعول فتفجرت رائحة التراب ندية . نادت العجوز على حورو حين ارتفعت الشمس واشتد حرها،

« يا حورو ، ان الصغيرين يحترقـان ، وسيقتلهما الحـر ، فتعالي يا ابنتي وانقليهما الى ظلي . »

أدارت حورو ظهر العجوز تجاه الشمس ووضعت الطفلين في ظلها وهي تقول :

« اماه ، ما الذي سنفعله حين ينحسر ظلك في الظهيرة ؟ »

ارتعشت شفتا العجوز الرقيقتان . ولو لا التجاعيد على وجهها الذي كان بحجم راحة يد ، لميز الناظر اليها حالا انها برصاء. وكانت عيناها غائرتين ومثل كرتين تدوران باستمرار تحت جفونها المسبلة . وتنتشر على يديها المتغضنتين اللتين برزت عروقهما بشكل واضح ، بقع مختلفة أشبه ببقع الشمـس . وكانت تبدو وهي جالسة في مكانها ، بحجم طفل صغير . وحين كان الصغيران يبكيـان ، كانت تطلب من حـورو ان تأتي وترضعهما . بينما كانت هي تترنم بتنويماتها وهي تتمايـل الى جانبيها :

سـأنيمك ايـها الرضيـع ، ن ... ن ، ن ... ن
واريـك بـين البساتـين ، ن ... ن ، ن... ن
أتيـت بـك ايـها الصغـير ، ن ... ن ، ن ... ن
مـن دكـة المهـد الاخضـر ، ن ... ن ، ن ... ن
مـن لـم يـذق حليب أمـه ، ن ... ن ، ن ...ن
لـن يعـرف رائحـة الام ، ن ...ن ، ن ... ن
سأنيمـك ايـها الصغـير ، ن ... ن ، ن ... ن
واريـك في القصـور ، ن ... ن ، ن ... ن

وحين تتصاعد الشمس وتصب شواظها على كل شيء، لا يقدر الانسان حينئذ على ان يمس الارض بيده أو يدوسها برجله فتنكمش الاعشاب واوراق القطن • وتشد العجوز الصغيرين الى بطنها ولولا حركتها الهادئة وتنويماتها لحسبها الانسان نائمة •

هكذا كانت العجوز تحمي الصغيرين من الشمس كل يوم حتى وقت العصر حيث تعاودها الحمى فترتجف وتتقلب على الارض الساخنة •

لم يكن قد بقي شيء من الافدنة الخمسة سوى بقعة صغيرة حين ادرك النبأ اسماعيل الذي كان منهمكا في خزن قمحه بعد ان انتهى من بيدره ، فاضحى كمن وقعت عليه صاعقة • فهرع الى بيت حورو فوجدها راقدة في الفراش شاحبة الوجه ضامرة الخدين•

« العمر المديد لك يا اختاه ــ قال اسماعيل ــ وليغمر النور روح تلك العجوز ، فقد حرمت من النور في حياتها ، ليغمر النور قبرها • »

« لقد ماتت منذ يومين ــ اجابت حورو بصوت باك ــ كم كانت تحب الصغار ، كانت تنويماتها تمزق القلب • »

« ليغمر النور قبرها ، فهي لم تر نورا في حياتها •»

« يقولون انها ماتت لاننا لا نملك سقيفة في الحقل تقينا من الشمس ومن الذباب • اواه انني احترق يا اخي • ان نارا مثل الجمر تسري في جسدي • »

ومن الذباب • اواه انني احترق ياأخي • ان نارا مثل الجمر تسري في جسدي • »

نظر اسماعيل اليها طويلا ثم قال :

« لقد جلبت لك هذا يااختاه •»

ووضع كيسا يحوي سكرا قرب مخدتها • وكان الصغيران نائمين في المهد ، فاخرج صغيره وحمله في حضنه ، واذ وصل الى الباب عاد ثانية وقال :

« أختاه يا حورو ، لا تقلقي على بيدرك ، سادرسه لك • وها آنا آخذ الطفل ••• »

عبر دربا ترابيا يغطيه نثار التبن الملتمع ، ومرّ من فوقه ظل سحابة • وبعيداً في الجنوب ، كانت كتل بيضاء من الغيوم اشبه بالاشرعة تحلق فوق البحر المتوسط • وكان السهل ممتدا على مدى البصر ، منبسطا ومائلا الى الزرقة مثل بحر سكنت أمواجه • وفي النهاية الاخرى كانت الظلال المعتمة للجبال الزرقاء التي تحد السهل تمتد باتجاه مشرق الشمس • وكان النصف السفلي من قامة اسماعيل مختفيا في الغبار • وامتلأ أنفه برائحة مستنقع حادة من حقل الرز الاخضر والممتد حتى اطراف القرية من جهتها اليسرى • وفي الخندق الممتد على طول الطريق ، كانت صفحة الماء مغطاة بطبقة من الغبار تهتز كلما مستها الريح •

كان رأس الصغير متدليا من فوق ذراع اسماعيل اليمنى ، وعيناه غائرتين ، يبدو مجراهما مثل ثقبين معتمين . وكانت رقبته دقيقة لا تقوي على حمل رأسه . وقد أسود لونه وانكمش جلده والتصق بعظمه . وكان ذقنه مرتخياً ، وشفتاه رقيقتين مثل خيطين من جلد ، والذباب يدخل ويخرج من فمه المفتوح . وكان اسماعيل مطرقا برأسه نحو ذراعه اليمنى الذي اراح عليها رأس الصغير . كان يحدق فيه هكذا ويسير .

الحانوتي

كانت شجرة توت ضخمة قاتمة الظلال تتوسط القرية ، وما كان بمقدور رجلين لو تعاونا معا ان يحيطا بأذرعهما جذعها .

وفي الوقت الذي كان فيه قيظ جوقور اوا يلهب الارض والسماء ، كان ظل هذه الشجرة الضخمة مأوى للناس والدواب. حتى ان جلد الانسان ما كان ينضح فيه بقطرة من عرق .

كان الحانوت قائماً هناك منذ سنين مسنداً ركنه الى جذع هذه الشجرة الضخمة ،وكان دغل سقفه يتجدد باستمرار كلما عتق وقصب سياجه يضفر من جديد كلما انفلتت أعواده .

كان صاحب الحانوت رجلا من « دارنده » ، تتدلى من فوق بطنه سلسلة فضية طولها اكثر من ذراع ، وتدور عيناه الصغيرتان في محجريهما بسرعة . وكانت اصابعه البيضاء قصيرة .

ومحمد افندي الدارندي اكثر ثباتا هنا من اهل القرية انفسهم ، فلا أحد يعرف كم من السنين انقضت وهو يعيش في

القرية اعزب ، ربما عشرون او ثلاثون • ياتيه من مدينته احيانا ابن صغير له ويمكث عنده شهوراً ثم يعود • وقد جاءه حتى الان العديد من ابنائه ، وهو الاخر يزور مدينة كل عام أو عامين وآنذاك يغلق الحانوت بابه ويعقد القرويون مجلسهم فوق دكة الروث التي تعلو الارض مقدار شبر • واذ يكون الحانوت الذي تشقق بابه وتحول لونه فضيا من أثر الشمس مغلقا يخيم على القرية حزن ثقيل ويبدو كل شيء غريبا فيها حين يغيب عنها محمد افندي •

في شهور حزيران وتموز وآب، يترك الجميع القرية الى الحقول، غير بعض الشيوخ والنساء وبضعة اطفال مشاكسين ، ويتربع الشيوخ فوق الدكة الخشبية في الحانوت صيفا وشتاء من غبش الصباح حتى غسق الليل حيث تعود الثيران الى القرية ، وهناك يتبادلون الحديث بل واحيانا يغفون ايضا •

وكان هناك صبي في العاشرة من عمره، يأتي هو الاخر عند الفجر حالما يفتح الحانوت بابه ، بل واحيانا كان يسبق الكبار الى هناك وكان مجلسه معروفا محددا قبالة الحانوت • فيجلس هناك صامتا مسندا ذقنه الى عصاه او ركبتيه ، متصنتا الى احاديث الكبار دون ان يفتح فمه البتة • وما كان أحد يزجره • أو يبعده من هناك وقد عرف عنه انه مجنون ، سوللو المجنون • وكان صامتا دائما ، لم يره احد يوما ما وهو يتحدث بكلمة الى غير امه قط •

غرقت القرية في صمت ثقيل مع اقتراب الظهيرة ، وسكن كل شيء غير نهيق حمار ياتي من بعيد بين حين واخر • وما كان احد

يجرؤ على ان يمد رأسه ليحدق في الخارج حيث الشمس تدوخ وتعشي الابصار ويبدو الكون وكأنه يتوهج باللهب ، فتختفي الكلاب والقطط والدجاج عن الانظار وتتجمع في ظل الاكواخ لتتمرغل في التراب •

في هذا الوقت بالذات تدنو من الحانوت مسرعة ، امرأة حافية القدمين ، مضطربة ، يخف سروالها الاحمر وينضح وجهها بالعرق وهي تحمل في ذيل ثوبها مقدارا من ذخيرة ، واذ تصل الاكياس الموجودة في ركن الحانوت ، تفرغ ما تحمله وتنفض ثوبها بيدها •

« ما مقدارها ؟ » يسألها محمد افندي •

« كيل واحد • »

« ماذا تشترين بها ؟ »

« سأشتري فيما بعد •• اضبط الحساب الان فقط • »

ثم تنصرف ، ويخط محمد افندي شيئا في الدفتر الذي أمامه لا توجد في القرية امرأة لا تعطي الحانوت دقيقا او ذخيرة ، خفية عن زوجها ، وتقايضها بحاجيات مختلفة • انهن يشترين الخرز والزبيب والبكميز* وجهاز العرس لبناتهن ومصايد العصافير لاولادهن • وليست النقود هي وسيلة البيع والشراء بين النسوة ومحمد افندي وانما الذخيرة • فالمرأة لاترى النقود ولاحاجة لها بها •

* البكميز : عصير الفواكه الكثيف

الذين يجلسون في الحانوت من الشيوخ هم ابار عميقة للاسرار ، وسوللو هو الاخر لايفتح فمه • وتبعث بنات الشيوخ وزوجات ابنائهم الذخيرة الى الحانوت مع نساء اخريات • ويفهم محمد افندي بأيمائة منهن لمن تعود الذخيرة ومن هي التي بعثت بها ، فيسجل ذلك في الدفتر الاصفر ، او يعطي المطلوب ويصرفهن فبين النسوة ومحمد افندي اتفاق خفي والرجال على علم به لكنهم يتجاهلونه • واذ يحل شهر مارت وتنفد الحبوب المعدة للطحن ، تضج القرية بصراخ النسوة وشتائم الرجال تصب اللعنات على رأس محمد افندي • لكن ماذنب الرجل ؟ فهو لم يفتح حانوته هباء ، ثم هل يطرد زبائنه ؟ ويستمر الضرب والصراخ حتى موسم الحصاد حيث تعود الحالة كما كانت ، وثانية يبدأ تسرب الحنطة والشعير من البيوت •

ويمتد من حانوت محمد افندي الى كل بيت في القرية خيط خفي ، وبه يصل اليه كل مايحدث في تلك البيوت • لماذا يتشاجر عشان مع زوجته دائما ؟ ولماذا يذهب ولي الى القرية المقابلة في فترات ؟ واشياء اخرى خفية ، حتى المحرمات • اذ لايمكن ان يخفي عليه شيء ، انها ضرورة من ضرورات المهنة •

ترجل الفارس الذي اخترق القرية مسرعا من حصانه قرب شجرة التوت الضخمة • وربط الحصان الى السياج الجانبي • وكانت رقبة الحصان الادهم قد أسودت من العرق وتبلل ظهره وكان الفارس مبتلا هو الاخر وقد دكن لونه وانفلتت خصلات من

شعره الاسود اللامع والمدهون من تحت قبعته • ومنديل كبير أصفر اللون مغروس في جيب صدره •

دخل الحانوت وحيا من فيه • ثم همس في اذن محمد افندي خطفا دون ان يلاحظ أحد ذلك :

« هل ان قضية البنت بخير ياعم ؟ »

« لقد انتهت » اجابه الاخر بهمس ايضا • ثم ابتعدا عن بعضهما حـــالا •

« كيف هو والدك ؟ وما هي أخبار القرية ؟ وهل ذلك الغجري مايزال هناك أم انك طردته ؟ »

هز الفتى كتفيه قائلاً :

« لاشيء ، ليس هناك من شيء جديد في القرية • والدي في صحة وعافية وهو يخصك بتحياته • اما ذلك الرجل فهو مايزال في القرية ، ولكن بقاءه لن يطول فيها • وسأحسم أمره باي ثمن كان مادمت حيا •• فلا تهتم بامره • فاما ان يترك القرية او اتركها انا والا فسأحرق قرية يري يوقوش •»

قال محمد افندي بغضب ولكن بنبرة لينة :

« على الله وعليك اعتمادي يا ابن اخي • اما اولئك القرويـون الجاحدون •• »

ثم التفت الى الشيوخ قائلاً :

« انظر ياحاج اغا ، انظر الى اهالي قرية يري يوقوش ، لم يعرج علي أحد منهم منذ عام . لكن حين تضيق الحاجة بخناقهم ويحتاجون الى الاستدانة ، يأتون متوسلين : اين انت يامحمد افندي ، لقد جئنا الى بابك زاحفين . ثم يأتي بائع متجول ويغريهم باشياء ويضحك منهم . يقال انه يبيع بسعر زهيد اني على استعداد ان ابيـع مايبيعه هو بنصف ثمنه ، والله بنصف ثمنه !! لتكن أمي زوجة لي أذا لم أبعه كذلك ! لكني لن أبيع مثل تلك البضاعة ، لن أبيع . فانا مع القرية مثل أهل بيت واحد . لن ابيـ ... ـع . »

غرس الحاج اغا اصابعه في لحيته وقال :

« لم يعد شبان اليوم يعرفون الاحترام . انهم لا يقومون من مكانهم حين تمر بهم . محمد افندي لايبيع مايبيعه ذلك الرجل . »

قال محمد افندي :

« لن ابيع ! فوجوهنا تلتقي مع بعضها دائما . »

قال عجوز اخر :

« ان اهل يري يوقوش بخلاء في الحقيقة . وهل تؤكل مرقة اللحم الرخيص ؟ »

قال محمد افندي :

« لو كان ذلك البائع الجوال هنا لطردوه في الحال . لامثيل لقريتنا، وهل يمكن الابقاء على رجل لايعرف من اين انحدر الى القرية لاحاجة الى القول اننا اهل قرية واحدة . انها قضية شرف .

فلو جاء احد مثله الى قريتنا لطردوه في اليوم نفسه . »

قال الفتى بحدة :

« ياعم ، لاتهتم بالامر مادمت حيا . نحن أيضا ماكنا لندع شخصا نكرة مثله في القرية لولا ان قالوا : دعوه يعيش فهو يرتزق اترك الامر لي فما دمت حيا سأجعل اهل يري يوقوش يزحفون اليك ثانية . قالوا انه فقير وقد جاء ليرتزق .. »

قال عدد من الشيوخ معا :

« انه فتى شجاع ، سيجعل اهل يري يوقوش يزحفون اليك ثانية فلا تخشى يامحمد افندي »

« اعتمادي على الله اولاً ثم على هذا الفتى الجريء ،ليحفظه الله. لا يخلف الاصيل وعده .»

ثم التفت الى الفتى ثانية وقال :

« انظر يا ابن اخي ، اتعتبرهم فقراء ؟ انهم يسرقون الكحل من العين . أنا أدري بهم . فقراء ! وهل تعرف ديدن أهل يري يوقوش جيدا ؟ يقتلهم الحسد اذا رأوا احدا يأكل خبزه براحة لقد اعطيتهم ما يريدونه بثمن مؤجل ، قبل ان تعرف هذه الديار الحوانيت . ان هذا الفتى جريء وسيطرده ، لقد رق قلبه لي ! ماذا سيأكل اطفالنا ؟ هل من الانصاف أن أفلس بعد هذا العمر ؟ ان أهل يري يوقوش كفار لا انصاف لهم .»

قال الحاج اغا :

« انه لفتى جريء • واهل يري يوقوش كفـار فلا تنتظر منهم رحمـــة • »

كان محمد افندي ماسكا بسلسلة الساعة المتدلية فوق بطنه الضخم ، يخرج الساعة ويعيدها الى جيب صدريته باستمرار دون ان ينظر فيها ويده تتحرك مثل آلة •

سو للو المجنون كان جالسا في مكانه ايضا ، يحدق في محمد افندي بصمت ، مسندا ذقنه الى عصاه • والشيوخ في اماكنهم ، والذباب في الجو مثل زنابير هائجة ، وكلما هش محمد افندي بيده طار سرب اسود منه من فوق اكوام الزبيب والتين والحلـوى فتنكشف ماهية المادة التي كان يحط عليها •

هدأت يد محمد افندي التي كانت تمسك بسلسلة ساعته :

« ان قلبي يقول لي : لاتبع لاهل يري يوقوش ولاحفنة من زرنيخ، حتى ولو دفعوا لك مليونا من الليرات ، اجل ولاحفنة من زرنيـــخ • »

قال احد الشيوخ :

« لاتبع يا اخي ، لو كنت مكانك لما بعتهم شيئا مقابل جحودهم هذا وهذه هي الرجولة • »

« أجل لن ابيع لهم ولا حفنة من زرنيخ •• »

سحب يده من سلسلة الساعة وخرج ليتوضأ • فقال احد الشيوخ من خلفه :

« ياقواد ، ايها القواد العجوز .. جاء مسكين الى هنا ليرتزق ،لا احد ياكل نصيب غيره . اذا شاء الله فهو يرزقك من الهند واليمن ، والا ماالذي يقدر الانسان عليه ؟ ما الذي تريده من فقراء الناس ؟ ما شأنك بهم ؟ دعهم يعيشون . يقول ان ذاك لا يبيع رخيصا ، بلى انه يبيع كذلك . بع انت بثمن أقل ليشتروا منك . كلا لن يبيع حتى يشتري نزلين اخرين في ادنه . آه ايها القواد .»

« انه يعيش هنا محتقرا في بيوت الناس ، ليطعم النساء ذوات السيقان البيض في ادنه » .

« جاء مسكين الى هنا ليرتزق . »

« جاء مسكين ... »

دخل محمد افندي فجأة وهو يسبح لله ، ثم مسح خلف أذنيه واردف قائلا :

« اهل يري يوقوش جاحدون . يغرسون السكين في البساط الذي يأكلون عليه . بضاعة رديئة لاتساوي خمسة قروش .»

غمغم الاخرون :

« بضاعة رديئة لاتساوي خمسة قروش ... »

في اليوم التالي وقبيل بزوغ الشمس ، مزق صراخ امرأة حاد سكون القرية في طرفها الشمالي . وشاع بعد برهة ان ابنة العجوز جميلة قد خطفت وان الذي خطفها واحد من اهل يري يوقوش .

علق شيخ قائلا :
« كان هذا منتظرا ، ففتى الامس لم يكن يبعث على الطمأنينة . »
اتجهت العجوز جميلة عند الضحى صوب الحانوت وسط زحام شديد وهي تصرخ وتولول وتشتم :
« ياذا اللحية القذرة، ايها القواد ! انت من فعلت هذا .. انت.. »
وأخذت تمطر باب الحانوت بالحجارة .
قال محمد افندي من وراء الباب :
« لا تفعلي هذا يا اختاه ، ماذنبي انا فيما حدث ؟ »
كانت المرأة وسط غيمة من غبار ، والتراب يغطي يديها ، وكان شعرها اشعث وصدرها مكشوفا وقد اندلقت ثدياهـا العجفاوان خارجا وبرزت اسنانها العلوية الطويلة بيضاء لامعة .
« ياذا اللحية القذرة .. »
كانت تثير الغبار كلما انحنت لتلتقط حجـرا ، ثم تصيح :
« قطعا هو انت ، ياذا اللحية القذرة ! »
أفرج شيخ عن الباب قليلا وبحذر وصاح :
« كفي عن هذا يا اختي ، ماذنب المسكين فيما وقع ؟ ما الذي يجنيه من تهريب ابنتك ؟ لقد سخنت عينا الفتاة فهربت .
اذهبي يا امي ، اذهبي الى الحكومة . هناك حكومة وقانون.
اذهبي ، ما الذي تريدينه ؟ »
تكاثفت غيمة الغبار وغطت المرأة التي كانت يدها تبحث في

الارض ، فالتقطت حجرا كبيرا ... « قطعا انت الفاعل . » فاطبق الرجل الباب .

« اذهبي يا امي ، اذهبي الى الحكومة ، ما الذي تريدينه من هذا المسكين ؟ »

تصاعدت غيمة الغبار ثانية

« قطعا ! انت لاتعرفه ، انت لاتعرفه ، انت لا تعرف ... ـه ! »

قال محمد افندي بصوت باك ويده في سلسلةساعته يخرجها ويعيدها بحركة آلية :

« ماذنبي انا ايها السادة ؟ هل قدر لي ان أبتلي بهذه المصيبة بعد هذا العمر . لقد هربت ابنته ، وماذنبي انا ؟ ما الذي جنيته؟ لتعمي عيناي اذا كنت قد تدخلت يوما في قضية شرف . لا اتدخل . آه يا سيدي . انه افتراء . فشرف هذه القرية هو شرفي . تعالوا ايها السادة وكونوا في محلي .»

كان داخل الحانوت مظلما والحجارة تتساقط على بابه الذي تشققت خشبة منه . وغارت عينا محمد افندي الصغيرتان في وجهه الممتليء وتحولتا الى مثل قطرتين ، كما احمرت رقبته المكتنزة وكانت يده الماسكة بالسلسلة تتحرك نازلة وصاعدة . ثم حرك رقبته الى الجانبين عدة مرات وقال :

« آه ، سيقتلني الحياء بعد هذا العمر .»

« قطعا انت الفاعل ! »

« آه ياسيدي ، ياله من بلاء عظيم . ماذا تفعل هل تَقتل ام تُقتل ؟
سأقتل نفسي . »

سوللو جالس في مكانه وقد أسند ذقنه الى عصاه وهو ينتفض كلما ارتطم حجر بالباب وتهتز يداه برعشة خفيفة . وكان محمد افندي يدور في مكانه مرتبكا حائر ينضح وجهه وجسده عرقا في ظلمة الحانوت وهو يردد بصوت باك :

« آه ياسيدي ، بعد هذا العمر الطويل ... »

« قطعـــا ! »

« سيتحطم الباب ، سيتحطم الباب ! ما هذا الذي ابتليت به ؟ أ أنا من يهرب فتيات ؟ هل يعقل هذا ؟ اجيبوني ايها السادة. »

ثم اقترب من شيخ وقال له متوسلا :

« ارجوك ايها السيد ... »

« ياذا اللحية القذرة .. » صاحت المرأة واردفت « قطعـا هـو أنـت ! »

أفرج الشيخ عن الباب قليلا وقال من خلال فتحته :

« اختاه ، اختاه ياجميلة ، اذهبي ! ما الذي تريدينـه من هـذا المسكين ؟ انه كالاخرس .. اذهبي بالله عليك : لقد حطمتي الباب . ستعاقبك الحكومة .. » ارتفعت غيمة الغبار واطبق العجوز الباب حالا .

فجأة توقفت يد محمد افندي التي تمسك بسلسلة ساعته وبرقت عيناه وامتدت يده الى لفات الاقمشة الملونة ، فاخرج لفة من قماش احمر منقوش بالزهور ، وقاس بسرعة ثم لف القماش ، ووضع مقدار كيلو من الحلوى في كيس ورقي ، وعاد الذباب الذي طار وحط ثانية • ثم التفت الى رستم اغا وقال :

« خذ هذا واعطه الى تلك العمياء ، الى تلك البلية الكبيرة حتى تنصرف والا ستحطم الباب • لم يبق لي حياء ، لقد طار سيتحطم الباب • اعلمها صدقة لابنائك • » •

نهض رستم اغا واخرج عن الباب قليلا وبحذر ثم صفقه ثانية قبل ان يصيبه الحجر • وصاح :

« ايتها العاهرة ، ايتها العاهرة ، كدت ان تقتليني ، ما الذي تريدينه ؟ » وقفز الى الخارج فجأة وأمسك بها من شعرها :

« ماذا تقولين ؟ خذي هذا وانصرفي الى بيتك • »

وحالما مست يد المرأة القماش وكيس الحلوى حتى قذفت بهما بعيدا • فانتشر القماش الاحمر وتناثر الحلوى فوق التراب • وصاحت بكل ما تملك من قوة :

« ايها الناس ، لقد تحالفوا مع الدراندي ضدي ، لقد تحالفوا جميعا ضدي ايها الناس •• » •

جمعت عدد من الصبايا الواقفات ، الحاجيات ثانية ووضعنها بالقرب منها ، فقامت ببطء وحملت القماش والحلوى

وقصدت بيتها وهي تدمدم •

حين فتحوا الباب انغمر المكان بالضوء الذي بهر العيون وكانت غيمة الغبار تهبط ببطء وبدت اثار ارتطام الحجر واضحة على الباب •

« انظروا ما فعلته تلك العاهرة بالباب ، ان احدا لن يصلحه بخمس عشرة ليرة • »

كان الظلام يخيم على المكان ، والقمر لم يطلع بعد • وقد هدأت الريح الغربية التي بدأت عصرا ، وكانت اغصان شجرة التوت التي تشبه شبحا اسود كبيرا ، تتحرك بهدوء في ظلام الليل • لمح القرويون الذين كانوا يسامرون قرب الساقية سقوط شرارة حادة بين اغصان التوت الضخمة • فغمر الوهج الاغصان التي بدأت الشرارة الحمراء تلتهمها • فصاح صوت طويل : « حريـ •••ق » فهرع القرويون الى المكان ،وكان الحانوت يحترق ومحمد افندي يدور في مكانه ويده في سلسلة ساعته وقد غطى عرق غزير وجهه وغارت عيناه تماما واحمرت رقبته بفعل وهج الشرارة • « آه ياناس ، ما الذي فعلته ؟ ما الذي ارتكبته من ذنب ؟ لقد تهدم بيتي ! »

ثم صاح باعلى صوته :

« النجدة ايها الناس ! لقد قضي علي • النجدة ايها الناس ، لقد ظل اطفالي جائعين • كل هذه السنين ••• القرية ••• كل هذه السنين •• ايها الناس ••• » •

هب القرويون جميعا وحملوا الخرق المبللة وجرادل الماء والتراب وحاصروا النار التي لم تكن قد امتدت بعد الى كل مكان . ووقف عجوز من الحاضرين حارسا على الحاجيات التي تم اخراجها من الحانوت ، ولم يدع احدا يمد يده الى شيء منها . وكان محمد افندي يدور على القرويين ويقبل ايديهم واحدا بعد اخر وقد اختفت ملامحه من اثر الطين والسخام وهو يردد :

« لقد انقذتموني وانا مدين لكم بحياتي .. لقد انقذتموني ... »

جلس الرجال المتعبون قرب السياج واجسادهم تنضح بالعرق وهم يميزون وجوه بعضهم البعض بصعوبة في ضوء النجوم. قاطعهم طوس عثمان الذي كان جالسا في ركن والقى القشة التي كان يخط بها على التراب ، وقال :

« لو ايقظنا القرية جميعا وبحثنا عنه معا حتى الصباح لما عثرنا عليه انه ابن كلب ! جربوا ان شئتم ، وابصقوا في وجهي ان عثرتم عليه . لن تجدوه ، لن تجدوه حتى لو قامت القيامة . لم يأت احد الى هذه الدنيا مثل ابن الكلب ذاك . من يدري اين اختفى ! »

قال احدهم :

« أمه فقط تعرف مكانه . »

« حتى الشيطان لا يعرف مكانه ــ قال طوس عثمان لا احد غير الله يعرف اين هو الآن . »

قال شبح صغير كان يجلس على مبعدة ، بصوت اجش :

« من كان يتخيل هذا ؟ ما فعلته جميلة نهارا وما فعله ابن الكلب هذا في الليل • ثم ما علاقتك انت بالامر يا ولد ؟ قرابة ..! تعثر بها حين كانا يعبران القنطرة! وما هي قرابتها من المجنون هذا ؟ »

« انه ليس بمجنون — قال رجل عجوز — وما فعله يعجز حتى العاقل عن فعله • »

قال شخص اخر :

« سينصب بلاء ، انني أعرف جيدا ، انه ابن كلب ! بالله عليكم هل

ردد عدة اشخاص معا :

« اجل ، سينصب بلاءً • »

نهض طوس عثمان من مكانه ودنا منهم ثم تربع على التراب:

« سينصب بلاء ، انني أعرف جيدا ، انه ابن كلب ! بالله عليكم هل يمكن التغاضي عما فعله بالحاج يوسف في العام الماضي ؟ هل يمكن أن يحدث مثل هذا الامر ؟ اجيبوني •• »

قالوا معاً :

« لم يسبق ان حدث مثل هذا من قبل • »

تابع طوس عثمان قائلا :

« طلب الحاج يوسف منه ماء ، لكنه لم يجبه ، فألح عليه لكنه لم يأبه به ، فضاق الحاج به وصفعه • لكن سوللو لم يتفوه

بشيء ايضا بل ظل في مكانه مسندا ذقنه الى عصاه وعيناه تحدقان في السماء • وحين ذهب الحاج يوسف الى حقله في الصباح ، وجد خمسة وعشرين دونما من نبات الرقي وقد تحولت الى هشيم وكأن نارا شبت فيها • ولما تفحصها وجد انه غرس سكينة في جذورها جميعا ، نبتة بعد اخرى ، ولم يبق على واحدة منها • »

قال احدهم من بين اسنانه غاضباً :

« الموت وحده ينظف من هو على شاكلته • لا خلاص منه بغير هذا • »

« وأمسك الحاج يوسف به وضربه حتى الاعياء ، ثم شده من رجليه وعلقه من شجرة التوت وظل هناك يوما وليلة حتى تدلت رقبته وطلع لسانه واسودت رجلاه من ضيق الحبل •• »

قال احدهم معلقا :

« كاد الحاج يوسف ان يفقد كل شيء وان يبقى جائعا • »

« بعد ذلك بيومين شاهدنا حقل الحاج يوسف تلتهمه النار ، كانت حزم الحصاد تحترق ، واستطعنا ان ننقذ نصفها بجهد • ولو كان قد انتظر حتى تغدو بيدرا ثم اشعل فيها النار ، لما بقى على شيء قط ولظل الحاج يوسف جائعا ذلك العام • »

قالوا معاً :

« من حسن الحظ انه لم ينتظره . »

قال طوس عثمان مؤكداً :

« اجل ، لظل الحاج يوسف وعائلته جائعين ذلك العام . ماذا يفعل، هل يَقتل أم يُقتل ؟ »

ردد الآخرون وراءه :

« نعم ، هل يقتل ام يُقتل ؟ »

نهض طوس عثمان وعاد الى مكانه في الخلف

« ليبحث عنه اهل القرية جميعا ، فاذا عثروا عليه فسأقطع يدي واحرق بيتي ، لكنهم لن يعثروا عليه قط . ان اقل مايفعله هو النزول الى قاع بئر والاختفاء هناك ، فهو لا يعرف الخوف ويستطيع البقاء في قاع البئر دون طعام أو شراب .. انه لا يخاف أبدا . »

بدأ الرجال ينصرفون الواحد تلو الاخر .

قال محمد افندي بغيظ :

« سيحرق القرية حين يكبر . سيأخذ علبة كبريت ويشعل النار فيها . لقد فعله اليوم بي وسيفعله بكم غدا . علبة كبريت ويدخل القرية من طرفها هذا ويخرج من الطرف الاخر . »

رددوا جميعا :

« تقتل ام تقتل ؟ هل تقتل ام تقتل »

فتح محمد افندي باب حانوته بعد ان انفض عنه اهل القرية فهجمت عليه رائحة حريق حادة . وكان الماء يتقطر ببطء

من اعواد القصب ، وسقط ضوء القمر بحجم اطار عربة في وسط الحانوت من الثغرة التي احدثها الحريق في السقف • وكان الطين يغطي ارضيته والفوضى تعم المكان ومحمد افندي يدور باستمرار فتلتمع السلسلة الفضية وتنطفىء كلما دخل او خرج من مساحة ضوء القمر • وظل هكذا لفترة حتى سقطت يداه المتعبتان الى جانبيه •

كان باب الحانوت قد فتح قبل قليل ، وبرز نصف قرص الشمس من وراء التل المقابل وامتدت اشعتها نحو الظلال •

حرك محمد افندي يده فتطاير سرب من الذباب ، ، مالبث ان عاد وحط ثانية على الاكياس ، فحرك يده مرة اخرى لكنها بقيت معلقة في الهواء • فقد امتد ظل نحيف وطويل مع عصاه نحو باب الحانوت ، ثم برز سوللو من بعده فانخطف لون محمد افندي ، وظل الصبي واقفا امام الباب مرفوع الرأس صارم الوجه • ثم سار وجلس في مكانه مسندا ذقنه الى عصاه ، وكانت خيوط شعره البني والمغبر منتصبة مثل ابر القنفذ ، وجهه مغطى ببقع كبيرة من ضوء الشمس وبرزت اسنانه العلوية من بين شفتيه الرقيقتين طويلة وبراقة • وعلى ذقنه اثر جرح يمتد حتى اسفل شفته السفلى ، وكانت عيناه زرقاوين ناعمتين وبياضهما واسعين• حدق في صاحب الحانوت طويلا وارتسمت على وجهه ابتسامة مجانية وامتدت احدى يديه الى سرواله النظيف المصنوع من نسيج يدوي وقد تمزق في جانب منه ، وكانت على يديه ورجليه

بقع مـن الدم المتيبس مما يظهر انه كان قد تجول في مكان مليء بالشوك ٠

ظل محمد افندي الذي كانت يده الماسكة بالسلسلة تنزل وتصعد ببطء يحدق في الصبي طويلا ، ثم فكر ونشج بعمـق ، بعـده ملأ كيسا من الحلـوى الملونـة واختـار مـرآة علـى ظهـرهـا صـورة أمـرأة عـاريـة ، ومصـيدة عصـافـير ، وكـرة زجاجية ومنديلا احمر ولـيرة ٠٠ واتى بهـذه الاشـياء ووضعها قرب سوللو ٠ فنظر هذا اليها بزاوية عينه وسحبها نحوه وتناول المرآة وحدق في كلا وجهيها ثم اعادها ٠ واسند ذقنه الى عصاه ولبث هكذا ساكنا وهو يحدق في محمد افندي ٠

« يابني ـ قال محمد افندي بصوت باك ـ يابني السبع ! مـاذا وجدت في من سوء ؟ ما الذي فعلته بك ؟ لقد احسنت الى الجميع كلما قدرت على ذلك ٠ اجبني يا ولـدي الجميـل ! أي سـوء ارتكبته ؟ ألا تعرف العجوز جميلة ؟ انها تفتري علي ٠ اين انـا من تهريب الفتيات بعد هذا العمر ؟ نعم يابني ، انت واحد من ابنائي الثلاثة ٠ لتعمى عيناي اذا ميزتك عن ابنائي ٠ انني احب الرجال الشجعان ، احبهم واللـه ، وانت اشجـع من في هذه القريـة ٠ وبأمكانك منذ الآن ان يأتي وتأخذ مـن الحانوت ماتشاء ، سواء أكنت حاضرا انا ام لا ٠ تستطيع ان تأخذ مـا تشاء وكأنه ملك لك دون ان تستأذن مني ٠ فالحانوت ملكك فخذ منه ماتشاء ، بل خذ كل ما فيه ان شئت ٠ انت ابني منذ الان ، هل فهمت ؟ كل هذه الاشياء لك فخذ منها ماتريد ٠ هل اعطيك مرآة اخـرى ٠

انظر فيها ، امرأة عارية على البحر ، انها تلمع مثل الماء ، مثل الكهرباء • نعم يا ولدي الشجاع ، انت ولدي منذ الان ، وسأتكفل بزواجك حين تكبر • هذا الحانوت ملكك • وكذلك هذه الاموال فخذ ما تريد ولا تتردد ! •• »

نهض سوللو ودلف الى الداخل بهدوء ، فاختار ثلاثا من مصايد العصافير التي كانت معلقة في زاوية وحشرها في جيوبه •

« خذ يابني خذ ! ــ قال محمد افندي ضاغطاً باسنانه ــ كلها لك ، خذ ما تشاء ! »

اسند سوللو ذقنه الى عصاه وضيق مابين عينيه وظل واقفا في مكانه يحدق في محمد افندي دون حكمة • وقد غمر الحانوت ضوء الشمس الذي ينفذ من الفتحة التي احدثها الحريق في الليل •

جاء رستم اغا اولا ثم الحاج اغا فطوس عثمان وانشا فخري وتوالى الاخرون بعد ذلك • وكان من يجتاز الباب منهم يتسمر في مكانه عند العتبة ويحدق في سوللو بحيرة ، ثم يدخل ويجلس •

خرج صاحب الحانوت لبرهة • فاهتزت لحية رستم أغا البيضاء وقال :

« يا هذا ، ايها القواد المجنون ، كنت ستهدم بيت المسكين وتتركه مفلسا • هل يمكن ان يحدث مثل هذا ؟ هل يستحق الرجل هذا ؟ »

قال الجميع معا :

« هل يستحق مثل هذه المعاملة ؟ ستحترق في الجحيم عن اعمالك السيئة هذه • »

قال رستم اغا :

« لاتفعل ياولدي ، لاتفعل ! من يفعل مثل هذا العمل يلقي جزاءه»

« اجل يلقي جزاءه » قالوا جميعا :

هب انشا فخري قائلا :

« اذن فقد لقى محمد افندي جزاء فعله• وانه ليستحق هذا الجزاء انكم تشتمون الولد منذ الصباح ! لقد اصاب الولد الكركي من عينه ، انه سبع ، مرحى لسوللو الشجاع • »

قال رستم اغا غاضبا :

« اذهب ، انتم جاحدون جميعا ، حتى اباؤكم تربوا على خبزه ، لا تكونوا هكذا ! تذكروا فضله عليكم وكفوا عن طوركم هذا وأتقوا الله ورسوله • ان عملكم هذا لمشين • »

كان انشا فخري طويل القامة ، رفيعا اسمر البشرة ، له شفتان حمراوان وغليظتان • وقد لقب بهذا الاسم لان اولاد الارامل في القرى يسمون باسماء امهاتهم •

نهض فجأة وانتصب امام رستم اغا وقال :

« انظر ياعم ، نحن لسنا جاحدين ، بل ذاك القواد هو الجاحد ، انه يبيع الاشياء بثمن مضاعف ، أليس كذلك ؟ الا يبيع ؟ »

« لكنه يبيع بثمن مؤجل ، فمن يقبل البيع هكذا غيره ؟ من الذي يسلّف الاخرين نقودا غيره ؟ »

« تقول انه يبيع ، وهل يبيع بنصف الثمن ؟ الا يسلّف النقود مقابل الحنطة ، ألا يسلف ؟ نعم ، ألسنا جميعا تتقاسم محصولنا معه ؟ أحسب ما تحصله انت ، هل هناك من لايرهن لديه نصف محصوله بل كل محصوله وفي كل عام ؟ اجبني ، هل هناك أحد ؟ »

« لا تكونوا جاحدين يا ولدي ! »

قال فخري بغضب :

« ياعم ، انتم ذوو عقول بالية ، لا تفهمون . انه رجل منافق ويبث الشقاق في القرية ! لقد احسن سوللو عملا ، سلمت يده ! لا يقدر على الكافر غير كافر مثله . »

قال رستم اغا :

« لاتفعل ياولدي ! لاتخرب نظام القرية ، انها ستفسد بعدئذ . فلا تعلم الصغار على هذا . سيأخذ هذا المجنون علبة كبريت غدا ويحرق القرية من اقصاها الى اقصاها . »

قال فخري :

« اذا كانت القرية عديمة الشرف مثل محمد ... »

دخل محمد افندي ، وتظاهر بانه لم يسمع شيئا :

« مرحبا بك يا ولدي فخري افندي ، لم تعرج علينا منذ زمن . كيف انت ؟ تعال واجلس هنا . بالأمس عرجت علينا امك

ايضا وتحدثنا طويلا ، ليطيل الله في عمرها . انها أمـرأة طيبة . لا مثيل لامك في القرية . اشكر الله لأن لـك اما مثلها . انها ملاك . ليت لي ام مثلها ولافقد ذراعي اليمنى بعد ذلك . ان امك تعادل رجلا .. » والتفت الى الرجال قائلا :

« ما عاد الاحسان يجدي مع أحد . فأحسانك يقابـل بالاساءة دائما . اجل ايها السادة ، انه يمتنع ان يرد نصف ماعليه من ديون منذ عشر سنوات ، فتعال واحسن الى احد ! . »

دخل من ورائه احدهم غاضبا ، وكان رث الثيـاب ، طويلا اسود اللون وذا خدين ضامرين ، وهو يصيح :

« منذ عشر سنوات وانا أسدد ما علي ، عشر سنوات ولم أنتـه منه . ان ديني يلد بأستمرار والا لكان قـد انتهى منـذ زمن ... لن ادفع بعد . لقد طفح الكيل ، لـن ادفع بعـد قرشا واحدا حتى ولو جاءت الحكومة ! عشر سنوات ... وكل سنة وانا أحسب انني انتهيت منه ، فاذا الدفتر الاصفر يفتح من جديد في كل موسم حصاد .. »

« اسمعوا ايها السادة ، اعمل الحسنـة لتتهم بالكذب ! اعمـل الحسنة واركض وراء الاخرين . اذهب يا اخي ، اذهب ! لا اريد منك شيئا ، اذهب وليكن ما اطلبه صـدقة لرأسي وعيني ! »

بهت محمد افندي وتغير لونه حين سمع صوتا غليظاً في الخارج ينادي :

« زبيب ها ، منديل ها ، رخيص ها .. ، مرايا ، قماش خام ، شالات ، ابر ، خيوط .. »

قال الرجل ذو الثياب الرثة :

« انظر يا عديم الايمان ، ان هذا الولد يبيع بنصف الثمن الذي تبيع به انت . » قال هذا وانصرف .

مر من امام الحانوت بائع متجول قصير القامة يحمل على ظهره صندوقاً ذا واجهة زجاجية ، ويقود امامه ثلاثة حمير .

« منديل ها .. رخيص ها .. بلاش ها .. »

قالت الفتاة التي دخلت توأ :

« هل عندك ما شة شعر ياعم محمد ، ماشة بنجوم ؟ »

« كلا يا ابنتي ، لاتوجد . » اجابها محمد افندي باضطراب .

خرجت الفتاة وكانت اردافها العريضة تتحرك في شروالها الاسود وقد خشرت فستانها الاحمر فيه . وكانت حلمتا ثدييها الحادتين واضحتين تحت ثوبها وتهتزان مع مشيتها . بعدها بقليل تبعها محمد افندي . وكانت الفتاة قد وقفت في ركن كوخ واسندت جانبها الايمن للسياج المضفور من القصب ، وكانت عيناها باهدابها الطويلة براقتين .

اقترب منها محمد افندي وفر الدجاج الذي كان ينبش التراب في الظل . وقال لها :

« يا ابنتي ، يا ابنتي الجميلة ، انت مثل ابنتي ، ولا أريـد بـك سوءً. وهل يريد احد سوءً لأبنته ؟ أليس كذلك يا ابنتي ؟ هل يريد أحد سوءً لابنائه ؟ انت ابنتي. القروي يختلف عن الحضري . لنفرض انك تزوجت من كول علي . أشهد انه شاب قوي ، لكنه جائع وستبقين مثله طيلة حياتك ، تكدحين في براري جوقور اوا ، تنقلين حـزم الحصـاد ، تجنـين القطن .. تجتثين الاعشاب .. وهـل ينتهي هذا ؟ حيـاة القروي مثل حياة الكلاب الرذيلة . نعم ، مثل حياة الكلاب الرذيلة . ستمتلىء كعباك بالشقوق يا ابنتي ويذبل جمالك بسرعة وتتحولين الى عجوز في السبعين وتخلفين قافلة من الصغار العراة ، مثل جراء الكلاب .. هذا يعاني من عينيه وذاك مصاب بالحمى . يريدون الخبز .. عراة ، عراة .. الحضريون وجدوا حلا لهذه . طفل او طفلان ويكفي ثـم يقطعونه بابرة واحدة فقط . فلا طفل بعد ذلك . لقد اغرم المسكين بك . انها فرصتك الوحيدة فلا تدعيها تفلت من بين يديك يا ابنتي ! هذه نصيحة ابوية لك . انه عريف كبير في السراي، أليست هنالك فتيات له في المدينة؟ لو أشار بيده لهرع اليه خمسون من الجميلات . لكنه اغرم بـك ، انـه القلب لا يشبه شيئا آخر . والا هل تعدم لمثله الفتيـات ؟ فلا تطردي النصيب الذي سعى اليك ! قائد شرطـة ! هل تفهمين ؟ قائد شرطة كبير ! انها فرصة لاتسنح لكل واحدة. ستمددين رجليك مثل السيدات ، وسيجلب هو وتأكلين أنت.

علي شجاع وهو يعادل أثنين مثل العريف ، ولكن ماالفائدة اذا كان جائعا ولا يملك شيئا • انت تعرفين جيدا انني مثل ابيك يا ابنتي • ستلبسين المعطف وفرو الثعلب في البرد مثل نساء المدينة • وستر تدين القفازات في يديك ، كل زوج منه • بخمسين ليرة ، حتى لا تتلف بشرتك • اما هنا فستختفي بشرتك من القذارة • وستلبسين هناك حذاءً لامعا • قولي لي أي امرأة رأت حذاءً في قدميها منذ ان ولدتها أمها ، في هذه القرية ؟ وهل يمكن رؤية حذاء هنا ؟ اما انت فلا تنزعين الحذاء ابدا • ستلبسينه حتى في داخل البيت • ماذا تجدين هنا ؟ انك لا تشبعين حتى من الخبز بشكل جيد • ستعيشين على الخبز وحده ليلا ونهارا • خبز بارد كالثلج • انه ليس بقليل ، انه قائد كبير ويتقاضى راتبا ضخما • وما يحصل عليه هو في شهر لن تحصلا عليه انت وعلي طيلة عمريكما • »

قالت الفتاة :

« ياه •• ان علي سيقتلني • »

« كلا ياابنتي ! سيبعث العريف بشرطيين يسوقا عليا الى مركز الشرطة حيث الحكومة هناك • وهل يمكن مقاومة الحكومة ؟ ان الرجل هو الحكومة ، وهي ليست بالشيء القليل ! وكذلك قائد الشرطة ! هل تفضلين الحياة مع علي ، وتسحبين وراءك مجموعة من الصغار الحفاة العراة مثل جراء الكلاب

في حر جو قور اوا ، ام حياة السيدات في بيوت بيضاء من طابقين؟
انت تعرفين . لا ترفسي ! هيئي صرتك قبل ان يذبل جمالك . »

ارتفع صوت البائع المتجول :

« رخيص ها .. منديل ها .. »

امتدت يد محمد افندي الى السلسلة وشحب وجهه وغارت عيناه ، وقال :

« يابنتي، قولي للنسوة ان لايشترين من هذا البائع . ان بضاعته من نفايات المصانع ، رخيصة ولكنها بضاعة تالفة ولا يمكن استعمالها . أنهن يشترين منه لانهن يجهلن حقيقة بضاعته . رخيص ... لا تردي نصيبك هذا يابنتي .. »

انفرجت شفتا الفتاة ، وكانت عيناها السوداوان الواسعتان غارقتين في تفكير عميق .

ترك محمد افندي فراشة قبل شروق الشمس ، وقصد بيت الاغا وهو ما يزال تحت ثقل النوم . وحين وصل الى الكوخ كانت الشفوف تبدو فوقه مثل ظلال ، وكانت الثيران ترقد على الروث وهي تجتر . فاسند كتفه الى عمود الكوخ ووقف هناك ينتظر . ثم اخذ ينادي بصوت خفيض :

« يا اخي ، يا اخـي دورمـوش اغـا ! انهض ... أووو ! اخي دورموش أغا ، ياأخي ! انهض . »

وحين لم يأته جواب من فوق ، ارتقى عدة درجات من السلم ونادى ثانية :

« اخي دورموش اغا ، لقد جئتك في طلب ! »

استيقظت امرأة وصاحت :

« أغا ، احدهم يناديك من تحت • »

نادى صوت أجش فيه اثر للنوم :

« من ؟ من انت ؟ »

« انا ، انا يااخي • »

« اصعد الى فوق ، ماذا هناك ؟ خيرا ! الليل في منتصفه بعد • »

صعد وجلس على حافة فراش دورموش أغا • فرفع هـذا نصف جسده •

« ماذا هناك ؟ ما الذي جرى لك ؟ »

لاتسأل ، لاتسأل • ان حالتي سيئة • هل ابتلي بهذه الامـور بعد هذا العمر ؟ اني لا اطيق هذا • لا اطيق ابدا يا اخي !

قالوا انه دورموش اغا ، قلت لاأظن ، لاانتظر هذا من دورموش اغا • لقد عشنا كل هذه السنين مثـل شقيقين • فلو كان عظمي من الله فان لحمي من دورموش اغا • لن يفعله بي • لن يفعله بي مثل هذا السوء • دورموش اغا شهم ولايرد خائبا من يلتجىء الى بابه • وهو لن يقبل في القرية طريد قرية يري يوقوش • »

ارتفع الصوت الاجش قائلا :

« قل ماذا حدث ؟ ماذا هناك ؟ ماالذي فعلته بك ؟ • »

« لقد بعث بقال قرية يري يوقوش، ذلك القصير ابن الشيطان، خبراً يقول فيه : ان محمد افندي هو الذي عمل على طردي من يري يوقوش ، حسنا ، ليطردني ، فسأتي الى القرية وافتح حانوتا قبالة حانوته ، عنادا ، وسأبيع بنصف الثمن الذي يبيع به هو ، وان ما ابيعه يتحمل مثل هذا الثمن . »

توقف وفكر ثم تابع .

« ويقول لن محمد افندي لن يبيع بالسعر الذي ابيع به . انه لن يرضى ان يبيع بضائع رديئة من نفايات المصانع ، فهو مثل اهل بيت واحد مع القرويين ، يلتقون معاً وجهاً لوجه كل صباح . انا لن أبيع ياأخي ، نحن نلتقي وجها لوجه ، هل يجوز هذا ؟ لن أفعل مثل هذا الشيء .. أجوع واشحذ ولكن لن افعل شيئا مثل هذا. اجل ياأخي، وانت يادورموش اغا ، انت ياأخي ، يقال انك ستعطيه أرضا ليقيم حانوته عليها . اقبل قدميك ، لقد كنا مثل شقيقين طوال هذه السنين واعتبرتك ابا لي .. لااطيق هذا الامر . ماذا تقول يادررموش اغا ؟ نحن اشقاء .. »

نظر اليه دورموش اغا ، وهو مايزال تحت تأثير النوم .

« ماذا تقول يا اخي ؟ اقبل قدميك ، اجبني ، لا اطيق هذا الامر ماذا تقول يا اخي ؟ ماذا تقول يادورموش اغا ؟ نحن اشقاء .. »

نظر اليه دورموش اغا ، وهو ما يزال تحت تأثير النوم .

« ماذا تقول يا اخي ؟ اقبل قدميك ، اجبني ، لا اطيق هذا الامر والله ، لا اطيقه ابدا • اقبل قدميك • أجبني • »

« ليكن كما تشاء • »

وسقط رأس الاغا على المخدة •

كان سوللو في مكانه ساكنا ، يحدق بلا مبالاة في محمد افندي الذي كان يتهامس مع قره دوران • حرك محمد افندي يده فتطاير سرب من الذباب ثم عاد وحط ثانية •

قال :

« انظر ابني دوران ، اذا قمت بهذا العمل فسأتعهد بزواجك ، وسأجعلك ثريا • فانا لا اطيق وجود هذا الشخص • انها قضية شرف • سيقتلني هذا الامر • وزع على الصغار زبيبا وحلوى • وحين تفرغون من الامر سأعطيكم اكثر • سأعطيكم نقودا ايضا • »

عدل دوران رقبته الهزيلة وقال :

« ياعم ، نحن لسنا اسوأ من اهل يري يوقوش • ولن ندخل عدو شرفنا الى قريتنا • لانريده • وهل القرية ملك ابيه ؟ انها قريتنا ، ندخل فيها من نشاء ، اليس كذلك ؟ انه عدو شرفنا ، ليأت البائع الغريب ، وسترى الآن ! »

وأنصرف • فقال محمد افندي من ورائه :

« اذا لم أزوجك هذا العام ، فلست محمدا أذن • ارني شطارتك ! »

وحالما انصرف ذاك ، دخل من ورائه عجوز هزيل ذو ملابس

رثة ، يبدو بطنه المتغضن من شقوق ثيابه ، ويجـر ساقيـه وراءه :

« يامحمد ــ قال العجوز ــ اعطني من الزبيب الـذي لانـواة فيه ! » مال محمد افندي على اذنه وصاح :

كم تريد منه ؟ كم تريد منه ؟ »

فتح العجوز كفه اليمنى وقال :

« وما ادراني ، اعطني ما يساوي هذا ! »

وزن محمد افندي الزبيب . وجر العجوز ساقية ، وغـاب مثل شبح .

كـان جميع أطفـال القرية من هـم دون الثانيـة عشرة من عمرهم متجمهرين عند الساحة القائمة امام الحانوت، وقد امتلأت ايديهم وجيوبهم بالحجر ، وهم ينتظرون أحدا ما . تشاجر طفلان ففرق قره دوران بينهما ، وكان هذا قصير القامة ، يشبه البقية . وعلى مبعدة منهم ، في جانب كـوخ اخر ، كان سوللو يقف وحيدا مع عصاه ، بينما كان الصغار يطلعون بعضهم البعض على الاحجار التي في ايديهم .

صاح قره دوران :

« انتبهوا يا اولاد الكلاب . ها هو عدو الشرف مقبل . »

تهيأ الصغار ، وظهر من الطرف الاخر بائع متجـول ضعيف وطويل ، يسوق أمامه ثلاثة حمير محملة بالصناديق ، ويحمل

هو الاخر على كتفه صندوقا ذا واجهة زجاجية يلمع تحت الشمس .

« رخيص ها .. بنصف القيمة ها .. منديل ها .. مصايد عصافير ها .. نوعية جيدة ها .. »

واذا وصل امام الصغار سوّى قره دوران من قامته ومدّ سبابته اليمنى صائحا :

« هجوم ! هج ... ـــوم ! »

فانصبت الحجارة والطين والروث على البائع . وجمد هذا في مكانه حائرا مضطربا وقد ادار جانبه الى الصغار دون ان يعرف حقيقة الامر . كانت الحجارة تتساقط عليه باستمرار فاضطربت الحمير وتصادمت . وبات الموقف سيئا وسيتهشم كل شيء . وفجأة وبسرعة خاطفة انتصب سوللو امام الصغار ولوح بعصاه ، فاختلط أمرهم وتفرقوا وهم يصرخون وتوقف الحجر والروث والقذارة وانزل البائع الصندوق من على كتفه ونظر فيه فوجده سالما . ثم جلس واخذ يحدق بعينين حائرتين في سوللو الذي ظل واقفا يحدق فيه هو الاخر . ثم توجه كلاهما بنظراتهما الى الحانوت . وعاد سوللو الى مكانه .

دخل قره دوران الى الحانوت وهو يلهث قائلا :

« ياعم ، لقد افزع سوللو الصغار ، والا كنا قضينا على الرجل . كنا نضربه بحماس ، لكن سوللو المجنون أفزعهـــم . لو امسكته لاشبعته ضربا . انت تعرفه جيدا ، كان كل شيء

يسير مثلما نريد ، ولكن ماحدث قد حدث ، انه ابن كلب ومجنون . قال محمد افندي :

« أتفعل هذا جزاء لكل احساني لك .. لتعمى عينك ياسوللو . أدبه يابني دوران . انني لا اطيقه . اتعهد بزواجك ، وهو دين في رقبتي .. خذ هذا ! »

ومد اليه عدة امتار من قماش ملون .

« خذ هذا الى أم سوللو واخبرها بما حدث . ولتأخذ المجنون خارج القرية لساعتين فقط في خلالها يمكن حتى قتل رجل . ليذهب المجنون ، وسيتم كل شيء مثلما نريد . »

قال قره دوران :

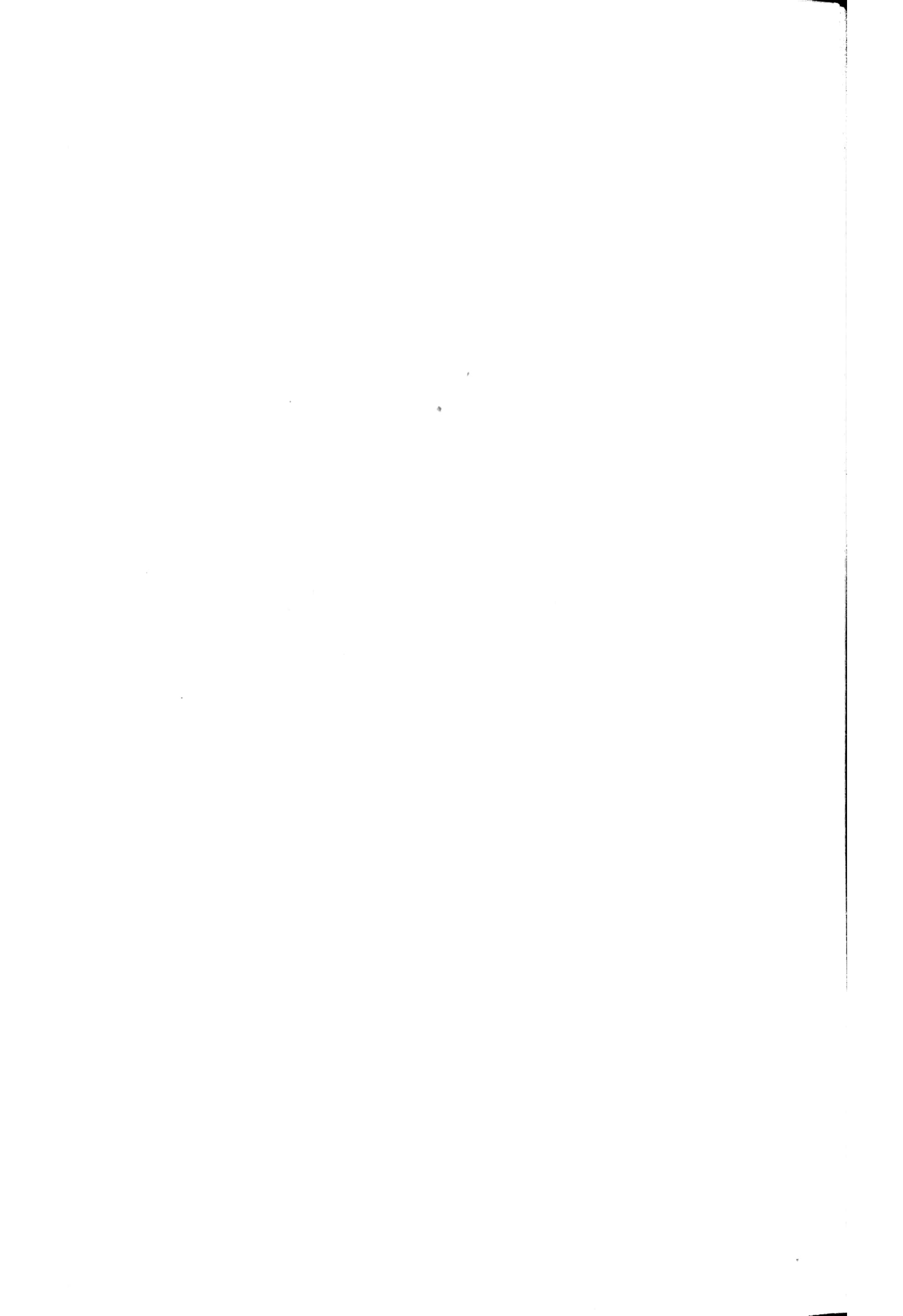
« الصغار كانوا يضربون بحماس . »

كان الوقت عصرا وقد انسكب ظل شجرة التوت الضخمة على الارض ، اسود كثيفا وطويلا ، حين عاد سوللو من حقل خاله . وكانت أمه قد بعثته متوسلة ليأخذ الغداء اليه . فدق قلبه بعنف وأدرك حالا ما حدث حين لمح الحمير خلف بيت علي وهي واقفة وقد احنت رقابها ببؤس .

وكان البائع جالساً مطرقا برأسه وقد استند بظهره الى السياج والصندوق مهشم وملقى على الارض ، ولم يبق فيه شيء ، وقد تناثر الصابون والحلوى ولعب الاطفال الملونة واشياء اخرى على التراب .

وقف سوللو امامه وكانت يداه ترتعشان . فرفع الرجل رأسه ببطء ، وكان وجهه غارقا في الدم وقد تفجرت شفته السفلى وتيبست على ذقنه بقع الدم . ونظر الى سوللو بانكسار فالتقت عيناهما وادارا رأسيهما وحدق صوب الحانوت . ثم سار سوللو .

فتح باب الحانوت بهدوء ودخل على محمد افندي . تناول عدة أزواج من مصايد العصافير وكريات زجاجية . وملأ جيوبه زبيبا ، كما أخذ مصباحا يعمل ببطارية ، ومنديلا واشياء اخرى . ثم جلس ووضع كل ما اخذه في منديل وشده . وكان لون وجه محمد افندي يتبدل باستمرار . ووقف سوللو امامه وحدق فيه طويلا . ومن ثم وبكل مايملك من قوة، بصق في وجهه : « ها... تفووو ... » فغمر رذاذ البصاق وجه محمد افندي بكامله .



القيظ

قال الصبي :

« أماه ، أماه ، أيقظيني غدا قبل بزوغ الشمس • »

« واذا لم تستيقظ ؟ »

« اغرزي ابرة في لحمي ، شدي من شعري ، اضربيني • »
غطى بريق فرح ، العينين السوداوين للمرأة النحيلة ذات الوجه الشاحب •»

« واذا لم تستيقظ ايضا ؟ »

« اقتليني • »

« احتضنت المرأة الصبي وضمته الى صدرها بشدة وهي تقول :

« يا روحي ! »

« اذا لم استيقظ » فكر الصبي لبرهة ثم قال فجأة : « ضعي فلفلا في فمي » أحتضنته المرأة ثانية وقبلته بنفس الحنان بعيون دامعة •

يردد الصبي باستمرار :

« اذا لم استيقظ ، ضعي فلفلا في فمي •• ها •• ! »
الام تجيب : « يا روحي ! »

« ليكن الفلفل حارا جدا • »

كان جذلاً يتقافز بمرح ، ويصيح باستمرار :

« فلفلا حارا ، فلفلا احمر ، ليحرق فمي حتى انهض في التو • »
يفلت من بين ذراعي امه ويصعد فوق سطح الكوخ مسرعا ، ثم يدخل في فراشه •
كانت ليلة صيف خانقة ، وفي السماء قمر كبير مدور ونجوم خافتة تنتشر هنا وهناك • وتنبعث من الفراش رائحة عرق دبق •

يتقلب الصبي في فراشه ، ويتخذ قراره : « لن انام حتى الصباح • »

فيفرح لذلك • وفي الصباح ما ان تنادي امه : « عثمان » حتى ينهض فجأة ويلقي بنفسه في حضنها ، وستندهش امه لهذا !

كان يتراقص فرحا في فراشه ، لكن فرحه خبا فجأة وتسرب الخوف الى نفسه ، واخذ يكرر : « ولكن ، ماذا لو نمت ؟ لن انام • ، لن انام ، ولماذا انام ؟ ما الذي أجده في النوم ؟ »
جاءت امه بعد فترة الى الفراش وتمددت الى جانبه وبدأت تهدهده :

« هل نمت يا صغيري ؟ »
لا يتفوه عثمان بشيء ما ، فتحتضنه أمه وتقبله ، ويسري في داخله فرح دافىء ، شيء مثل الحب ، يبعث على البكاء .
انه ينتظر الصباح ليرى كيف انه سيستيقظ على عجل ليثير دهشة أمه .

نامت الام ، وعثمان يتململ في فراشه ، فتتثاقل اجفانه ، انه لا يتخلى عن نفسه بسهولة .

ينهض لبرهة ويحدق في وجه أمه التي كانت تتنفس بعمق . وجهها ابيض مضاء بضوء القمر ، وشعرها الغزير بضفائره اللامعة يبدو الان اكثر سواداً وهو مكوم على بياض المخدة بحلقات متداخلة ، وبعد ان يحدق في الشعر والوجه الابيض فترة طويلة ، يتثاقل رأسه ويسقط على المخدة . الليل في منتصفه والبدر يضيء الجو ويحيله الى نهار ، وبالامكان رؤية البقرة الراقدة وهي تجتر أسفل الكوخ وسماع صرير اسنانها . وكان النوم يحاصر عثمان ، ويبدو انه سينام لا محالة ، فيكز باسنانه ويعض ذراعيه . لكنه مهما فعل ، فقد كان النوم مثل ماء يغمره من كل الجهات . فيغضب ثم يبتسم ويكرر غضبه وابتسامته. انه سيحتضن امه في الصباح وسيلف بذراعيه رقبتها .

كان القمر قد انحدر نحو السهل الممتد في ناحية الغرب وحافته تبدو وكأنها ستلامس الارض ، انه سيحمر ويغيب

حتما . وبدأت كتل من الضياء تنبعث رقيقة بيضاء من خلف الجبال الممتدة الى الشرق ، وتضيء قممها بهدوء . فدبت الحياة في أرجاء القرية وبدأت ثيرانها بالخوار .

انحنت الام واخذت تحدق وهي ساكنة ، في الصبي الذي أنحرف رأسه عن المخدة . كانت رقبته هزيلة ووجهه شاحبا حتى يخيل انه لم يكن يتنفس . وكان وجهه الصغير يبدو مثل خيال في ضوء الغبش، بينما كانت الام تنتحب من مكانها.

رمى الصبي ذراعيه التي كانت بغلظة اصبع خارجا من تحت اللحاف ، وقد بدا وكأن لحمه سيقع من عظمه . فتعلقت عينا الام به ، وتحسرت من اعماقها : « اواه يا صغيري .. اواه .. » وتململت يمينا ويسارا ثم نهضت من عند الصبي فوقع ظلها على قصب الكوخ بفعل ضوء القمر الساقط عليها. همست الام بغضب : « لن أوقظه ، لن أوقظه قطعا . فلنمت جوعا اذا كان لابد من ذلك . ما الذي يفيده كد طفل ؟ » ما تزال عيناها على الذراعين وقد استبدت بها دهشة كيف انها لم تنتبه حتى الان الى هزال ولدها لهذا الحد . « اذا كنا سنموت جوعا ، فلنمت .. » ووضعت خصلة من شعرها الطويل بين اسنانها ومضغتها بحنق .

صاح زوجها من الاسفل :

« ألم يستيقظ بعد ؟ »

اجابت المرأة بتضرع :

« ما الذي تريده من الصبي ؟ انه بحجم أصبع ، ستتهشم عظـامه من الهزال • »

قال الزوج غاضبا :

« يجب ان ينهض اليوم • قلت لك يجب ان ينهض ! عليه ان يتعود على العمل لا على الكسل • يجب ان ينضج منذ الصغر • »

همست المرأة بخوف : « ذراعاه هزيلتان لدرجة ••• »

اقتربت من الصبي ووقفت عند رأسه، ولم يكن قلبها يطاوعها لان توقظ هذا الطفل الذي هو في خفة الريش وان تسوقه الى العمل في مثل هذا الحر اللافح• صاح الصوت الغاضب من الاسفل :

« ايقظيه ، اصفعيه ، لقد وعدنا مصطفى اغا • من اين سيجد صبيا في هذا الوقت من الليل ؟ »

« يا رجل ، قلبي لا يطاوعني ، انه ضعيف جـدا ••• هل يغنينا كده ؟ »

صاح الرجل :

« اذا لم يتعود على العمل منذ الان ••• »

داعبت المرأة شعر الصبي وقالت بهدوء :

« يا عثمان ، انهض يا عثمان ، انهض يا صغـيري ، لقـد اشرقت الشمس • »

أنّ الصبي وتقلب ببطء الى جنبه الاخر •

« عثمان يا صغيري ، الشمس تشرق ! »

أمسكته من كتفيه برقة وكأنه سيتهشم ، ورفعته ، ثم اعادته ثانية الى الفراش •

« انه لا يستيقظ ، لا يستيقظ ، هل أقتله ؟ »

نزلت بسرعة ، فاهتز الكوخ تحتها مثل مهد •

هاج الرجل :

« لعنة الله عليك وعليه ، لا يستيقظ ها •• ! »

« لا يستيقظ ، ماذا افعل ! »

قفز الرجل الى سطح الكوخ بحدة ، وامسك بالصبي من ذراعه ورفعه بعنف • لبث الصبي معلقا في يده مثل أرنب صغير وهو يتململ دون أن يغلب نومه بعد ، ويصيح : « أماه •• أماه » فأنزله ورماه فوق تراب الباحة ، امام المرأة •

حدقت المرأة في طفلها وقالت : « لايدع الله طفل احد تحت رحمة آخر •• » رفعته من الارض حالا وضمته الى صدرها ، وكانت عينا الصغير مفتوحتين على سعتهما وهو يحدق بحيرة • ثم اخذته وغسلت وجهه بالماء البارد •

« أماه » هتف الصغير بعد ان عاد الى نفسه •

« روحي ! »

« هل وضعت فلفلا في فمي ؟ »

وصلت عربة مصطفى اغا ، وتوقفت امام الدار •

« عثمــان ... »

هرع عثمان نحوها وصعد اليها ، وكان جذلا يغني .

أخذت الام ، زينب ، التي تعمل عند مصطفى اغا . وقالت لهــــا :

« فديتك يازينب ، اعتني بعثمان ، انه طفل ، جلد وعظم ... »

اجابت زينب :

« لا تقلقي يااختاه ، هل يمكن أن أوذي عثمان ؟ »

حين وصلوا الحقل ، لم تكن الشمس قد اشرقت بعد . وكانت حزم السنابل التي حصدتها ماكنة الحصاد وألقت بها في انتظام طرية بعد . وفي الجو ، كانت هناك رائحة حقول واعشاب ندية . شدّوا حصانا واحداً الى العربة واخذوا يحملونها بحزم السنابل وكان عثمان الذي يسحب لجام الحصان ، ياخذ العربة الممتلئة الى البيدر مسرعا ويعود بها فارغة . وكان الفلاحون يلاطفون عثمان بين حين واخر قائلين له :

« كيف الحال يا عثمان ؟ »

« عشت ياعثمان ! »

وكان عثمان يفرح لذلك ..

برزت الشمس في تلك الاثناء من وراء الجبال المقابلة ، مثل كرة نارية حمراء . وكان بخار دقيق بالكاد تراه العين ، يتصاعد من اعواد القمح ومن الحزم ، بينما كانت في السماء تدور قطع غيوم

بيضاء ، وعثمان ينتقل نشطا مثل مكوك بين جامعي الحزم والبيدر تلاطفه زينب بين حين واخر قائلة : « ها عثمان ، ها ياشبلي .. »

ارتفعت الشمس في السماء وغمر ضوءها كل مكان ، بينما انعكست اشعتها الساقطة على حزم السنابل والتي اخذت تلتمع وتنطفىء مثل خيوط براقة ، وبدأت تتطاير مئات الالوف من خيوط الضوء الملتفة ببعضها . وكان الغبار يغطي وجوه الفلاحين وتسيل عليها خطوط العرق . وبدا المكان كله وكأن نارا شبت فيه.

هزل وجه عثمان الذي لوحته الشمس ، اكثر . وضاقت عيناه الواسعتان واخذ العرق ينضح من ملابسه .

اين حيوية الصباح التي كانت تغمره . اذ يسير الان تلتف ساقاه ببعضهما ، ويوشك ان يقع تحت حوافر الحصان لولا انه يتمالك نفسه ، فيتقافز من مكانه كلما داس على التراب الساخن مثل حديد حام ، ولذا كانت مشيته تبدو غريبة تماما . بينما كانت الفلاحات يستلقين فوق اكوام السنابل على قفاهن تحت الشمس ، ليرتحن قليلا ريثما تعود العربة. كان يقف فوقهم احيانا ظل غيمة بيضاء لبرهة ثم يمضي تلاحقه العيون ، فيحدق عثمان في السماء باستمرار باحثا عن غيمة اخرى .

الشمس في كبد السماء ، والكون يتوهج من الحر ، والارض الحامية والمتشققة ، محرقة تحت قدمي عثمان مما تجعله يتقافز بألم وكأن حديدة حامية تغرز في رئتيه . ومن شدة

القيظ كان هسيس مكتوم ينبعث من الحزم وسيقان السنابل، وما كان بالامكان رؤية شيء على مبعدة عشرة امتار .
ألتفتت زينب الى عثمان وهي تلقي الحزم في العربة ، ورأت ساقية وهما ترتعشان بشدة . فقالت له :

« عثمان ، يا عثمان ، لا تتنقل هكذا ماشيا ، دعني أحطك على ظهر الحصان . »

رفعته وحطته فوق ظهر الحصان . وقاده عثمان جيئة وذهابا، لكن ساقية ظلتا ترتعشان . قفز من مكانه واتجه نحو زينب التي كانت تشد الحزم بعيدة . سألته زينب :

« لماذا تركت الحصان ؟ ماذا تفعل لو شرد بعيدا ؟ »

اقترب عثمان منها وأمسك بيدها قائلا :

« انظري خالة زينب ، سأشتري لك قرطا ذهبيا حين اكبر . »

وعاد الى الحصان راكضا .

الحر خانق ، وليست هنالك ولا نأمة خفيفة من الريح . وساقا عثمان تؤلمانه ولم تعودا قادرتين على الاحتفاظ به في موضعه فوق الحصان الذي اخذ يذهب ويعود من تلقاء نفسه بعد ان فقد عثمان القدرة على قيادته . كما ان عينيه لم تعودا تميزان شيئا ، وسيسقط لا محالة .

حلت فترة استراحة الظهيرة ، وتناولوا طعامهم تحت الشمس وتجرعوا ماء ساخنا كالدم . لكن عثمان لم يضع لقمة واحدة في فمه رغم كل محاولات زينب . كان يشرب الماء فقط وباستمرار .

وعملت زينب خيرا حين صبت فوق رأسه جردلا من الماء • بعده استطاع الصبي ان يثوب الى نفسه قليلا •

حين نهضوا لعملهم ثانية • قالت زينب :

« اذهب واسترح يا عثمان ، سيقود الحصان غيرك • »

« كلا يا خالة زينب ، سأخذ الحصان بنفسي ، فلست متعبا قط •»

اخذت مقود الحصان من يده • فجلس عثمان يبكي بشدة وهو يقول :

« انني لم أتعب ، لم أتعب والله •• »

قالت عجوز هناك :

« ضعوه على الحصان ، ليقع ويتمزق تحت حوافره هذا الجرو ! »

اجاب عثمان :

« لن أقع والله ، انني لم أتعب • »

وضعوه على ظهر الحصان ، لكنه بدأ يدوخ ويتمالك نفسه بصعوبة بعد جولات ثلاث • ثم استلقى على وجهه فوق ظهر الحصان وشد بيديه على عرفه • فانتبهت زينب لحاله وانزلته وهو فاقد وعيه ثم مددته على حزمة وهي تردد : « انه لصغير عنود • » وجلبت ماء وصبته على رأسه ووقفت تجاه الشمس لتظله • فافاق عثمان بعد فترة وأخذ يحدق في الفلاحات بعينين فارغتين ، من مكانه الذي القي فيه ، وهو لا يرفع رأسه خجلا حتى المساء حيث

انتهى العمل ، فأمسكت زينب بيده ورفعته الى العربة وهو اشبه بكومة طرية • وقالت :

« لقد اشتغلت اليوم بجد يا عثمان ، وسيعطيك مصطفى اغا اكثر مما تستحق • »

فسألها عثمان بتلهف :

« ولكن هل يعطي ؟ »

« لقد اشتغلت كثيرا •• »

بدا عثمان منتعشا ونشطا •

اجتمعت العائلة جميعا امام باب البيت الخارجي ، تتناول عشاءها ، وعلى مقربة منهم كانت العربة تقف وقد شد اليها حصانان دسا رأسيهما في العشب الطري مخشخشين وكأنهما يمتصانه ، وكان الجو يفوح برائحة عشب ندي •

بدأ الظلام يهبط ، وكان عثمان يقف على مقربة من الحصانين وهو نافد الصبر مذ ان عاد من الحقل • يحدق بالجالسين الى الطعام الذين نسوه تماما •

ضاق عثمان ذرعا بالانتظار فاخذ يسعل ويدور ويلتقط من الارض عودا ويكسره ويخط به خطوطا ودوائر وهو يضغط به على التراب لتصدر منه أصواتا لعل الذين انشغلوا بالاكل والحديث والضحك ينتبهون اليه ، لكن دون جدوى ، فيعود ويمسح برجله الخطوط التي خطها ، ويركز نهاية العصا في التراب ثم يدور حولها راكضا • وينسى الجالسين ويستغرق في لعبته •

وفجأة سمع صوتا ما ، فسقطت العصا من يده وجمد في مكانه واراد ان يهرب لكنه احجم عن ذلك . كان صوت زوجة مصطفى اغا وهي تقول باستغراب :

« اواه ، عثمان ، انه عثمان ..تعال ياعثمان . »

لكن عثمان لم يتحرك من مكانه .

« تعال ياعثمان ، تعال واجلس وكل معنا ! »

ظل عثمان كما هو لا يأبه بها ولايتفوه بشيء

« هل ارسلتك والدتك ؟ »

يحدق عثمان في الارض ولا يرفع رأسه .

« ألم تذهب الى البيت حين عدت من الحقل ايها الولد المجنون ؟ ستبحث عنك والدتك وستقلق عليك . »

مالت المرأة على زوجها وقالت له شيئا ضحك له الجميع . كان عثمان يود من كل قلبه ان يهرب ، لكنه بدا وكأنه تسمر . في مكانه .

قال مصطفى اغا :

« انظروا ، لقد نسيت ان ادفع أجر عثمان . »

واخرج محفظة نقوده ، ومد لعثمان نقداً من فئة خمس وعشرون ليرة فالتقطه هذا بلمح البصر ، ثم هتف :

« اللوش ••• » وهــرع مسرعاً •

حين وصل البيت ، القى بنفسه على صدر أمه وهو لاهث الانفاس قائلا :

«خـــذي ! »

ادارت الام النقد فوق رأسه ثلاث مرات ، ثم قربته من شفتيها •

البعوض

حشـر حسن يديه في كومة الحنطة الباردة حتى مرفقيـه • وابقاهما كذلك لفترة ، ثم أخرجهما •

كانت ليلة حارة وخانقة من ليالي حزيران • وكانت النجوم كبيرة وصغيرة • وبين حين واخر كانت تشق الظلام مثل سيف وهي تسيل واحدة بعد اخرى •

جـاء حسن ووقف عند رأس زوجته التي كانت ترقد علـى وجهها فـوق أرضية البيدر الباردة • وقد اطبق بصدرهـا العاري على التراب وهي تتنفس مستمرة مثل منفاخ •

يمتد على بعد خمسين خطوة منهما ، وحتى التل المقابـل ، حقل رز أسود تأتي منه رائحة مستنقع رطبة ، ثقيلة ودبقـة •• رائحة اعشاب متفسخة ، حادة وحارة •

تتقلب المرأة على ارضية البيدر ، وتتنقل من جانب الى اخر ، وكان فمها فاغرا وهي تتنفس بصعوبة وتقطع •

جلس حسن قرب رأسها • وكان البعوض فوق رأسيهما مثل غيمة سوداء • تعبت المرأة من الضرب ، ولم تعد يدها قادرة على الحـركة • وكان جسدها مغطى باللسعات ، والثياب التي ترتديها لا تحول بينها وبين البعوض •

وكانت يدا حسن تتحرك في الهواء وفي صـدره وفخذيـه باستمرار •

قالت المرأة :

« حسن ، حسن •• لقد تعبت يداي من طرد البعوض •• وتمزق جسدي • »

وتمرغت في التراب طويلا ، ثم تمطت • وقالت :

« اواه ، اواه ، لقد مت • »

اخذت تحك فخذيها وعجيزتها وصدرها ، مثلما تريد تمزيقها •

« ليتنا متنا وتخلصنا من هذا العيش، ماهذا ؟ لنذهب الى البيت •»

« نذهب ــ قال حسن ــ ولكن هل تعتقدين ان البيت أفضل من هنا ؟ البعوض هناك اكثر • »

قالت المرأة :

« لقد مت ، ماهذا ؟ »

أسند حسن صدره الى كتف المرأة قائلا :

« سيسرقون الحنطة ، يأخذونها كلها • »

قالت المـــرأة :

« وماذا نفعل اذن ؟ »

حسن :

« ما العمل ؟ »

ضرب حسن منتصف جبهته بقوة . وقال :

« أوه ، كأنها تغرز ابرا ، لقد تلطخت يدي بالدم الاحمر ، يبدو انها امتصت دما كثيرا . »

مسح يده بسرواله جيدا .

قالت المرأة :

« ما رأيك ياحسن ، لو أزحنا التبن وحشرنا نفسينا فيه ؟ »

« سنموت من الحر . »

« لكن البعوض سيفترسنا ان بقينا هكذا . »

« وماذا نفعل ؟ »

صاحت المرأة غاضبة :

« ليصب بالعمى من أوجد البعوض ! وليعش مشلولا زاحفا على الارض ان شاء الله . »

حســـن :

« اننا نتحمل الكثير منه . »

المرأة :

« جد حلا يا حسن . لن اتحمل حتى الصباح ، لقد تورم وجهي . »

لم تكن يداه تتوقفان ، كان يضرب جسده باستمرار .

« لابد من تجفيف هذا الحقل . لابد من تجفيف جميع حقول الرز . »

نبشت كومة التبن بسرعة ودفنت نفسها فيها ، فانتفضت حين لامست برودة التبن جسدها . ونادت :

« تعال يا هذا ، تعال انه بارد جدا .. تعال واحشر نفسك فيه . »

اقترب حسن منها وقال :

« لكنه يحرق . »

« والبعوض ؟ »

« سترين الان ، اخرجي من هناك . »

كانت المرأة مدفونة في كومة التبن حتى رقبتها ، ويداها تتحركان حول رأسها ..

« لن أدع البعوض يدنو من رأسي . »

« سترين الان .. »

بدأ العرق يسيل من جسد المرأة ، واخذ القش الملتصق بلحمها ينغرس فيه ويحرقه .

« يا لها من برودة في داخل كومة التبن »

حسن :

« وكذلك سترين الان .. »

اعتدلت المرأة وقالت :

« ايه ، ليس هنالك ولا رجل واحد في هذه القرية •• انتم جميعا رجال بالاسم فقط • لقد جاء رجل من مرعش وحول السهل الكبير كله الى مستنقع • »

قال حسن :

« حوله ، لانه يمتلك النقود • »

كان الحر شديدا داخل كومة التبن ، وبدت المرأة على وشك الاختناق ، وهي تصر باسنانها وتود ان تقفز خارجا • وحسن يروح ويجيء امامها •

« تعال يا حسن ، بارد داخل كومة التبن كالثلج •• تعال وادخل فيه • سيفترسك البعوض هناك • »

« قلت لك تعال • »

« هكذا أفضل • »

« تعال ! رجال قرية كبيرة •• لم يبق طفل في القريـة لم تصبه الحمى • لقد انهكت الحمى الناس جميعا • تف ! لتمت رجولتكم • تعال وادخل • »

فكر حسن لبرهة ثم أزاح التبن فجأة وحشر نفسه فيـه • شعر بالبرودة في البدء •• ومن ثم ••

كانت المرأة على وشك الاغماء • وكان فمها فاغرا وهي تتنفس بصعوبة •

« لتمت رجولتكم • أ كان بامكانه ان يزرع الرز هنا ، لو كنتم

رجالا بحق ؟ »

قال حسن :

« كان يقدر ، لأن خاله يسنده ٠ »

« لقد عجزتم حتى عن مراجعة الحكومة لتشرحوا لها ان اهلنا وصغارنا تهدهم الحمى جميعا ، ولم تطلبوا ناموسية ٠ رجال مثلكم يستحقون الموت ٠ لو كنا نملك ناموسية الان ٠٠ »

قفز حسن من داخل كومة التبن فجأة وهو يقول :

« لقد مت ، احترقت ، كيف تتحملين انت ؟ »

لم تتفوه المرأة بشيء ٠

« داخل كومة التبن مثل الجحيم ، ليفترسنا البعوض هنا ٠٠ »

كانت المرأة منهكة ٠ وقد اختلطت رائحة العرق والمستنقع الحادة والحامضة مع رائحة التبن الطري ٠ وكان قش التبن الملتصق بجسدها يحرق البقع التي لسعها البعوض كالجمر ٠

« ليمت رجال هذه القرية جميعا ٠ تعال واخرجني من هنا ، بدلا من أن تقف هناك هكذا ٠ »

تمددت على التراب حالما خرجت من داخل كومة التبن ٠

« يالبرودة التراب ٠ »

لم يمض غير قليل حتى بدأ البعوض يطن فوق رأسها ٠

« اواه ، اواه ، انه يفترس كالكلب ، كالكلب ٠٠ ٠٠ كل واحدة مثل كلب مسعور ٠ »

اخذت تتمرغ على ارضية البيدر وتصيح :

« تمت رجولتكم ، لو كنتم قد راجعتم الحكومة ، لحصل كل منكم على ناموسية من المرعشي • لقد خفتم جميعا من المرعشي الذي لا يتجاوز طوله شبرا واحدا • »

حسن :

« لم نخف منه ، لكن المختار اخذ رشوة منه . »

« بل خفتم • »

« كلام المرعشي نافذ ، فله من يسنده لدى الحكومة • »

كان حسن لاينفك يحك فخذيه العاريين بالتراب • واخذت المرأة تركض وتصيح :

« انه ينبغي اينما ذهبت أ، اينما ذهبت ، اينما ذهبت •• »

ثم تعبت وجلست وسقطت يداها الى جانبيها • وقالت :

« ليأت ويفترس •• »

وظلت هكذا لفترة دون ان تتحرك •

« ان المرعشي هو الذي انقذ من يد الحكومة ، من خطف أليفا • كان شكري المجنون قد حطم الابواب والنوافذ واخذ أليفا خلف فوق حصانه الى سهل سيرانغيج • لقد انقذه المرعشي ••• »

« لان شكري المجنون يفيده • »

« لم يراجع أحد منكم الحكومة • وقد اغتصب حقولكم • والجميع

اصابتهم الحمى . »

كانت ارداف المرأة الراقدة سوداء ، معتمـة ومكـورة في الظلمة . وكان حسن مايزال يحك فخذيه العاريـين بالتـراب . واخذ يحك بسرعة اكثر وعيناه في الارداف المكورة . واحتضن التراب الساخن فترة من الزمن . ثم اقترب من المرأة بهدوء واخذ يمرر يده فوق أردافها ، فانتفضت المرأة وتدحرجت الى الزاوية الاخرى .

« يا أمرأة ... »

« هل جننت يا رجل . »

اقترب منها زاحفـا . وكان التراب سـاخنا على لحمه .. والشهوة تسري في عروقه .

« هل جننت ؟ » قالت المرأة وتدحرجت . ثم اردفت :

« يكاد النعاس يقتلني . »

زحف نحوها ..

« لقد افترسني البعوض . »

كانت يداه في الارداف يداعبها باستمرار .

« أووه .. » همست المرأة .

أطبق عليها حسن . ولم تحاول المرأة الخلاص منه .

« حين خطف شكري المجنون أليفا ، جلبهـا الى السهـل ...

بـارد ٠٠ »

كانا غارقين في العرق ، وفوق ارضية البيدر ، كانت سحابة من البعوض تطن وتدور فوق رأسيهما٠وكان الجو ثقيلا ودبقا والظلام قاتما ، وكان نقيق الضفادع ياتي من حقل الرز ٠

مسك المرأة من يدها وانهضها ٠ وكان التراب تحتها رطبا من العرق ومنتطينا ٠

قال حسن :

« غدا سأراجع الحكومة واقدم لها طلبا ٠ وسيجففون حقول الرز هذه كلها ٠ »

السروال الابيض

كان الحر شديدا ، وكان الصبي مصطفى مبتلا بالعرق ، وظل الحذاء الذي يرتقه في يده وشرد بعيدا .

كانت الشمس تغطي الشوارع الملتوية والخربة والساحات المتهدمة في القصبة . وكان كلب متدلي اللسان يرفد في الظل القاتم لشجرة التين ذات الاوراق الثخينة عند زاوية الجدار القذر للبيت المقابل . وكان الصبي ضجرا وظل فترة يحدق في الكلب حتى ان الحذاء بدا وكأنه سيقع من يده . ثم نظر الى الاسطة بزاوية عينه اليمنى . كان هذا كعادته مستغرقا في عمله . وضع الحذاء على السندان ودق فيه مسمارا وبدأ يرتق الشق الموجود في عقبه ، لكنه سئم منه فتركه .

هذا الحذاء هو اكثر الاحذية التي مرت بين يديه تهرؤا . وكان يشك بانه سيقدر على اتمام رتقه .

قال :

« لن أعمل في هذا الحذاء . »

رفع الاسطة رأسه ونظر اليه ، ثم قال :

« ماذا هنـــاك يا مصطفى ؟ كنت تعمل بجد منذ الصباح • فمـا

الذي دهاك ؟ »

« انه متهريء يا اسطه ولايمكن رتقه • »

« واصل عملك •• » قال الاسطه •

ظل مصطفى يعمل في الحـــذاء حتى المساء ، لكنه لم يفلح في رتقه تماما • وكان العرق يسيل من نهاية انفه •

أمتد الظل القاتم لشجرة التين نحوالشرق• وانحدرت الشمس على التل المقابل • اذ ذاك دخل الحانوت السيد حسن ، صديق الاسطة الثري • واخذا يتحدثان ويضحكان •

وقع نظر السيد حسن على الصبي الذي كان غارقا في العرق • ثم التفت الى الاسطة قائلا :

« لو أعرتني هذا الصبي لثلاثة ايام • هل يعمل في محرقـــة

الطابوق ؟ »

وسأل الاسطة :

« هل تعمل يامصطفى ؟ عمك حسن يحرق الطابوق • »

قال السيد حسن :

« ثلاثة ايام وثلاث ليال ، وستقبض اجرك ، ليرة ونصف كل يوم ،

ستساعد السيد جومالي ، انه من محلة صاورون وهو رجل

طيب ولن يرهقك بالعمل •»

قال مصطفى فرحـــا :

« حسنا ياعم حسن ، دعني أخبر أمي . »

قال السيد حسن :

« اخبرها ، اخبرها وتعال الينا غدا ، ستباشرون العمل بعد الظهر وعليك ان تعثر هناك على جومالي ، أما انا فلن اكون هناك. »

يعطيه الاسطه ربع ليرة لكل اسبوع عمل . الشهر تموز ، اي انه يقبض ليرة واحدة في كل شهر . حذاء صيفي بليرتين ، سروال ابيض بثلاث ليرات ، المجموع ؟ ثلاث ليرات . تموز ، آب، ايلول ... ماذا يساوي المجموع ؟ ثلاث ليرات . يعني لا أمل في شراء حذاء صيفي وسروال ابيض .

عشت ياسيد حسن ، لا مثيل للسيد حسن في هذه القصبة أطال الله عمره . كم أجر اليوم ؟ قال لـيرة ونصف . أي اربـع ليرات ونصف لثلاثة ايـام .

تغسل يديك بالصابون جيدا، وتخرج الحذاء الكتاني الابيض من ورفه . وتغسل رجليك ايضا ، ثم تلبسه . الجواريب بيضاء ايضا . وعليك أن لاتمس السروال ، فهو يتسخ بسرعة .

رأس الجسر ، والفتيات يتجولن هناك ، الهواء يطير ثيابهن لكن الهواء يشد السروال الابيض الى الساقين اكثر .

هرع مصطفى الى أمـه :

« أماه ، يا أماه ! يا أمي الجميلة ، سأعمل مع جومالي في محرقة

الطابوق العائدة للسيد حسن • »

« كلا •• » قالت أمـــه •

سألها مصطفى غاضباً :

« ولكن لماذا ؟ »

قالت :

« هل سبق وان عملت في محرقة ؟ هل تعرف ما هو حرق الطابوق ؟
سوف لن تذوق النوم الثلاثة ايام بلياليها • هل ستطيق هذا
ياصغيري ؟ »

قال مصطفى :

« سأتحمل • »

قالت أمه :

« ألا اعرفك ؟ أعرف ما الذي أعانيه حين اوقظك في الصباحات !»

قال مصطفى :

« لكن الامر يختلف •»

قالت الام :

« كلا •• كلا •• »

قال مصطفى :

« لن انام • »

« ستنام ، لن تطيق • »

قال مصطفى :

« انظري يا اماه ، ان سامي ابن السيد توفيق •• »

قالت الام :

« نع ... ـــم ؟ »

التمعت عينا مصطفى بالامل ، كان يعرف طبع أمه .

« هـل تتذكرينه وهو يرتـدي سروالـه الابيض .. الابيض الناصع .. »

« حسنا .. »

« سروال جميل ، ناصع البياض كالثلج ، وثوبي الحريري سألبسه ايضا ، الا يناسبني ؟ »

أحنت المرأة رأسها .

قال مصطفى :

« أجيبيني ، أجيبيني ، ألا يناسبني ؟ ساحافظ عليه نظيفا . سأعمل لثلاثة ايام واقبض اجري ، وسأبتاعه واخذه الى اسطة وايس الخياط وسأبتاع ايضا حذاء مطاطيا ابيض بليرتين من الحاج محمـد ، وثوبي الحريـري في الصنـدوق . قولي ، ألا يناسبني ؟ »

رفعت الام رأسها وقد دمعت عيناها ، ثم اقتربت منه بهدوء واحتضنته قائلة :

« يا روحي ! ياروحي ! ما الذي لا يناسبك ؟ »

« ان خياطة اسطة وايس انيقة ومتينة .. هل اذهب يا اماه ؟ »

« لا علي ، افعل ما تشاء ! »

واذ سمع مصطفى بهذا قفز الى نهاية البيت وعاد وهو يتقلب على يديه ورجليه ، وقد تلوثت ثيابه بالتراب • ثم حضن امه وقبلها • وقال :

« حين اكبر •• »

« حين تكبر •• تعمل كثيرا • »

« وبعد ؟ »

« ستحيل الحقل الموجود قرب النهر الى حديقة ، وتوصي خياطي أدنة بملابس لازوردية • وسيكون لك حصان تمتطيه • »

« وبعد ؟ »

« ستكون مثل ابيك • »

« لو كان لي أب ؟ »

« كنت تذهب الى المدرسة العالية لتدرس وتصبح شخصية كبيرة • »

« والآن •• ؟ »

« لو كان ابوك حيا •• »

قال مصطفى :

« انظري ، ستكون لي ساعة ذهبية حين اكبر ، اليس كذلك ؟ »

استيقظ مصطفى قبل شروق الشمس واتخذ طريقه نحو محرقة الطابوق • كان الدرب متربا ، وكان التراب يتفجر تحت قدميه باردا ويتسرب الى الجانبين ، وسيل رطب من الضياء ياتي

من وراء التل • وارتفعت الشمس مثل كرة من الجمر حين وصل الى المحرقة • وقد بدأ الرطب من الطابوق يتيبس •

مد الصبي رأسه ونظر الى داخل المحرقة ، كان مظلما ، وقد تكومت الاشواك امامها مثل تلال صغيرة • وظل يدور هناك حتى الظهيرة وهو موزع الذهن بين الفرح بالسروال الابيض والخشية من العمل لثلاث ليال دون نوم •

جاء جو مالي ظهرا وقد غطاه العرق والتراب • وكان بدينا ، بطيء المشي ، ووقف امام المحرقة • ازداد مصطفى خوفا حين رآه• ومشى جومالي متجهم الوجه فوهة المحرقة دون ان يلتفت الى مصطفى • وانحنى ببطء ومد رأسه داخل فوهتها • وظل هكذا فترة ثم سحب رأسه • والتفت الى مصطفى وقال بحزم :

« ما الذي تفعله هنا ، يا ولد ؟ »

« لاشيء • » قال مصطفى متلعثماً • ، وداخلته رغبة في الهرب •

كرر جومالي :

« لماذا هناك ياولد ؟ »

قال مصطفى :

« لقد بعثني السيد حسن ، لاعاونك • »

ادار جومالي ظهره الى الصبي غاضبا وبسرعة لاتناسب وقاره وقال :

« انظر انظر ، الى هذا القواد حسن ! انه يريد من صبي بحجم يد ان يوقد محرقة طابوق ضخمة • » وبسط يده الكبيرة واردف :

« صبي بحجم يد .. » ثم قال لمصطفى :

« يا أبن الزنا ، هل تعرف كيف توقد محرقة ؟ »

« اعرف ، طبعا . »

« يا ابن الكلب ، ثلاثة ايام بلياليها ... »

« أعرف ... »

« يا ابن العاهرة ، هل تعلمت هذا العمل في بطن أمك ؟ هل تتحمل ثلاثة ايام بلياليها .. ؟ »

سكت مصطفى ولم يحر جواباً .

« يابني ، لن تطيق هذا العمل . ان هذه المحرقة التي تشاهدها تبقى متقدة لثلاثة ايام ، وعليك ان تنقل الاشواك اليها لثلاثة ايام بلياليها دون ان تنام غير ساعة او ساعتين ، وانا كذلك . فلن تتحمل هذا .. أيعقل هذا ليجد رجلا اخر بدلا منك . »

ظل مصطفى واقفا لفترة ، ثم خطى تجاه القصة عدة خطوات لكن قدميه كانتا وكأنهما تخطوان الى الخلف ، فتوقف ، وتراءت له مجموعة من البياضات تتطاير امام عينيه . سراويل بيضاء ، سحاب ابيض ، ثياب ناصعة البياض ، اكوام من القطن . واحرقت خيشومه رغبة حادة في البكاء ، ولو لم يحجمها لانفجر باكياً في الحال .

قال بصوت متوسل ورقيق :

« ياعم جومالي ، سأعمل اكثر من رجل كبير ، لن أنام قط . » ثم تذكر فجأة وأردف : « واذا ما عدت الان فسيعيدني السيد

حسن الى هنا ثانية .. فقد قبضت أجري مقدما واشتريت به سروالا ابيض وحذاء مطاطيا . أجل يا عم جومالي .. »

قال جومالي بحنق :

« انصرف ، ولا تكن بلاء عليّ ! »

لكن مصطفى ظل واقفا في مكانه .

« ياترى لماذا تتسبب في قطع رزقي ؟ ألانني صغير ؟ لماذا ؟ اني أعمل خيرا من الاخرين ، ثم اني قبضت أجري ، واذا ما ذهبت الان فسيعيدني السيد حسن ثانية ! »

قال جومالي :

« ها .. هكذا اذن ! »

« لقد قبضت أجري مقدما ... »

قال جومالي :

« تعال اذن ، اما اذا تركت العمل قبل أتمامه ، أعرف آنذاك ماذا سأفعل بك . »

هرع مصطفى الى جومالي فرحا ومسك من يده اليمنى الضخمة :

«سأوقد المحرقة جيدا،لقد قبضت اجري مقدما واشتريت به سروالا ابيض . وقال لي الاسطة وايس : » لقد فصلت سروالك اجمل تفصيل . »

أجل .. انت ايضا قبضت اجرك مقدما ، أليس كذلك ؟

سأوقد المحرقة جيدا ... »

قال جومالي بصوت ناعم :

« حسنا ايها الصبي المجنون ، أرني شطارتك . »

اشعل جومالي قطعة الخشب التي جلبها معه والقاها في المحرقة ، وبدأ الشوك يخشخش في الداخل ببطء ، ثم اشتعلت فجأة واخذ اللهب يندفع من الفوهة التي كانت بحجم نافذة .

قال جومالي وهو يسب :

« ايها العاهرون ، انهم عاهرون جميعا . هل يوضع هذا المقدار من الشوك في الحريقة الاولى ؟ »

أوقف مصطفى أمامه شارحا له كيف يلقي الشوك في المحرقة، وكان يتحدث ويسب في آن واحد . وبدأ اللهب الذي كان يتطاير الى كل الجهات ينسحب الى الداخل رويدا رويدا . وظل داخل المحرقة مثل مغارة سوداء . اما مصطفى فقد حمل حزمة من الشوك وحشرها في الفوهة دون ان يسأل جومالي ، ثم تبعها بحزمة اخرى .

كان حر الظهيرة يلهب كل شيء . الدرب الترابي ، اشجار التين الضخمة باوراقها السميكة وظلالها القاتمة ، النهر الذي ينساب بلون الرصاص المصهور ، السماء الرمادية ، السحابة الوحيدة العالقة فوق التل ، الاشجار ، الطيور التي تمرق في الجو بين اونة واخرى ، الاعشاب المغطاة بالغبار والمائلة برؤوسها ، الزهور الصفر والبيض في المروج المتيبسة ، واكوام الشوك

اليابس • وكان مصطفى مغطى بالعرق وهو يغطي النار بالشوك باستمرار في هذا القيظ • وكان الدنو من المحرقة عملا شاقا ، فالشمس تصب شواظها من فوق والنار من أمام • وقد أحمر وجهه وعيناه السوداوان الملتمعتان واسنانه البيض الضاحكة ، واضحت جميعا بلون اللهب •

حين تتصاعد السحب فوق البحر المتوسط على هيئة كرات ، يعني ان ريحا باردة ستهب من ناحية البحر وتلف الناس مثل منشفة رطبة وباردة •

بدأت تباشير تلك الريح وهي تثير الغبار • وكان مصطفى يرتعش من التعب والجوع • أما جومالي الذي كان راقدا على ظهره يدخن في ظل شجرة التين القائمة على مبعدة من المحرقة ، فقد نهض متثاقلا وقال لمصطفى بحدة :

« ألا تريد ان تخلد الى الراحة قليلا ؟ اذهب واسترح • »

انحدرت الشمس من فوق اشجار الدلب ثم غابت ، وظلت الاشجار مثل ستارة سوداء •

صاح جومالي :

« تعال يا مصطفى ، تعال لنتناول طعامنا • »

وفتحا الصرة التي بعث بها السيد حسن ، كانت تحوي خبزا وجبنا وبصلا أخضر • وكان مصطفى يشعر بجوع جديد فانهمكا في الاكل ، ثم ذهب مصطفى الى النهر وملأ الجرة ، وشربا من الماء

الفاتر كثيرا ، ثم مسح جومالي شاربيه الطويلين المتهدلين بظاهر يده •

نهض مصطفى الى عمله حالا ، اما جومالي نقد ذهب باتجاه النهر ، ثم عاد ببطء وقال :

« سأغفو قليلا يامصطفى ، أيقظني حين تتعب • »

« حسنا ياعم • »

كان الليل قد تعدى منتصفه منذ وقت طويل ، وكان القمر ساقطا خلف أشجار الدلب ولا يبدو منه غير جزء يسير • وكان وجه مصطفى الصغير أحمر يتفصد بحبات العرق الملتمعة • وفي الداخل كانت النار تضطرم ، فتلتحم في الوسط الموجة الكبيرة الهابة من اليمين مع الموجات الصغيرة الزاحفة من الخلف مكونة كرة كبيرة تندفع من فتحة المحرقة وتتقطع في الخارج ، ثم تلتمع في الظلمة للمرة الاخيرة وتنطفيء •

أصغى مصطفى بانتباه • كانت خشخشة عالية وانين واصوات أشبه بأصوات الصغار حين يبكون ، تأتي من داخل المحرقة كلما قذف بالشوك فيها • قال مع نفسه :

« اواه ، ان الشوك يبكي ايضا • »

سمع صوت جومالي الذي كان يخالطه النوم ، وسأل :

« ماذا تقول يا عم جومالي ؟ »

كرر جومالي :

« هل تعبت ؟ هل أجيء ؟ »

انتفض مصطفى وسرت رعشة شديدة في جسده ، ونضح عرقا باردا • والقى بحزمة كبيرة من الشوك بواسطة عود مزدوج النهاية في المحرقة وقال :

« كلا ، وهل أتعب انا ؟ نم يا عم • »

ولم يتفوه جومالي بشيء •

شعر مصطفى بتعب شديد ولفحته النار حتى لم يعد قادرا على الدنو من المحرقة • ولو لا العود المزدوج النهاية لساءت حالته اكثر • انه يجمع الشوك حزمة فحزمة ويكومه أمام المحرقة ، ثم يدفعه فيها بواسطة العود وهو منحن عليها حيث تلفحه موجة حر عنيفة ويشعر بالاختناق فيتراجع حتى الاكمة الصغيرة المقابلة ويكشف صدره للريح يستشعر البرودة • كان الهواء خانقا وثقيلا، وكان هناك شريط من ضوء كثيف خلف التل ولم يعد مصطفى قادرا على الركض حتى الاكمة ، كان على وشك ان يغمى عليه وقد نزع سرواله الممزق وثوبه منذ فترة طويلة • وغرد ذلك العصفور الذي يغرد عادة قبيل الفجر بصوته الطويل الحاد •

استيقظ جومالي ثانية وسأل :

« هل تعبت ؟ »

قال مصطفى :

« كلا يا عم ، لم أتعب قط • »

قال هذا وشعر بالاختناق وكان صوته قريبا من البكاء •

نهض جومالي وهو يتمطى وفرك عينيه ثم بال طويلا بالقرب من شجيرة • وترنح الصبي في مكانه ، لكنه تمالك نفسه ، والقى

بالحزمة التي في حضنه الى المحرقة وهو يرتعش .

« هيا ، اذهب ونم » قال لـه جومالي .

كان مصطفى ما يزال نائما حين قدم السيد حسن الى هناك وسأل :

« كيف هو الصبي ؟ هل يعمل جيدا ؟ »

مط جومالي بشفتيه وأشار الى الصبي الذي كان غارقا في نومه تحت شجرة ، قائلا :

« انه طفل صغير . »

قال السيد حسن :

« واصل عملك ، وسنتحاسب بعدئذ » ثم أنصرف .

حين استيقظ مصطفى ، كانت الشمس عالية وشديدة الحرارة، فاستند بيده على الارض التي كانت مثل حديد ساخـن ونهض قائما ، ورغب في ان يتمطى لكنه كان متعبا ، وكانت عظامه وكأنها قد تهشمت ، وشعر بألم عنيف في جسده . فاستجمع كل قـواه وهرع نحو جومالي .

« يا عم جومالي ، اعذرني . » قال وهـو يلهث « لقـد اخذني النوم . »

وحمل الشوك وبدأ يلقيه في المحرقة .

« ألم أقل لك انك لن تقاوم وسيأخذك النوم . » قال جومالي .

وتظاهر مصطفى وكأنه لم يسمع شيئا . واستعاد نشاطه

بعد قليل ، وقال :

« مرحى .. لقد اجتزنـــا اليوم الاول . »

وتذكر اليومين الطويلين الباقيين ، والليل الخانــق الــذي يشبه جحيما دبقة تلتصق بلحم الانسان . فاصابه اليأس . واخذه الشرود : ماذا في يومين ؟ القطن ليس ابيض بهذا الشكل ، بالطبع انهم يعالجونه بمواد أثناء النسج ، تل سليمــان في العصريــات والطريق المار قربه . بنات القصبة ذات الافخاذ السمر الممتلئة . فوق الجسر .. نهر صاورون صاف جــدا ، تستطيع ان تــرى الاسماك التي تتقافز الى اعلى ، وان تعــد الحصى التي تضيئها الشمس في قاع الماء !

هد الاعياء مصطفى لكنه جاهد واستمر . اما جومالي فقد نام واستيقظ بتثاقل مثل خنزير . وسأل : « هل تعبت ؟ » فاجابه الصبي بالنفي محني الرأس وقد احرقته النار .

القمر فوق اشجار الدلب ، ومصطفى لم يعــد قــادرا على سحب خطواته ، ولم تبق الا ليلة واحدة . أجل ليلة واحــدة !

قال جومالي بنفس صرامته :

« بماذا تشغل نفسك ؟ هيا تعال . »

« جئت يا عم ، ها انا جئت . »

« ايقظني حين تشعر بالتعب . »

اذ تخفت النار ولو قليلا ، لا ينضج الطابوق جيدا ويذهب

التعب سدى • فلابد ان تستمر النار ويندفع خارجا ويلحس الليل •

عجزت يداه عن الامساك بشيء واضحى يكره اللهب المندفع ، وعجز عن الركض حتى الاكمة المقابلة بعد • كان يرقد على الارض حين تكون باردة في الليل ، منكفئا على وجهه غير راغب في النهوض بعد ، فيسقط رأسه الى امام ويغفو • لكنه يستجمع قواه فجأة ويهب واقفا • اللهب يلتف ويدور وينقلب لونه من الاحمر الى الاصفر ثم الى الاسود ، ويندفع بمحاذاة رأسه نحو الظلام ويتطاير •

انه الجهد الاخير ••• اتجه بنظره نحو المشرق ، لم يكن هناك أثر لشريط الضوء • بصق نحو جومالي بغيظ ، وكان فمه متيبسا •

« يا من أمه وزوجته ••• يامن يدعى بالعم جومالي ••• »

جاء بحزمة اخرى حانقا ورماه في المحرقة •

كانت يداه ممزقتين ومحترقتين وتؤلمانه وقد تيبس الدم عليهما • وكذلك صدره • وكان الافق غارقا في الظلام • وانفتحت عيناه على سعتهما وغمرته الرعشة واختلطت الاشياء ببعضها في سواد الليل • اشجار الدلب مثل ستار أسود ، الاكمة ، اللهب ، المحرقة ، الشوك ، التل القريب من الافق ، جومالي الذي يغط في نومه ويشخر ، فدارت الدنيا حوله ومادت الارض من تحت قدميه وسقط غائبا عن وعيه •

استيقظ جومالي بعد وقت طويل ، وتمطى . وهتف من مكانه الذي يرقد فيه :

« مصطفى ، هل تعبت ؟ »

ونادى ثانية دون جواب . فنهض غاضبا بعد ان كرر نداءه لمرات . وشاهد المحرقة مغمورة في الظلام . فهاج وركل الصبي بعنف :

« يا ابن الكافر ، لقد محوتني . علي اذن ان أدفع ثمن محرقة كاملة من الطابوق . »

لكن شيئا اشبه بالماء البارد انساب على قلبه حين نظر داخل المحرقة . كان اللهب مايزال يلحس الجدران ببطء .

استعاد الصبي وعيه مع بزوغ الفجر ، ونظر فيما حوله بعينين خائفتين . فلمح جومالي مكشوف الصدر يلقي بالشوك في المحرقة باستمرار ، فذعر وقال بصوت خفيض من مكانه :

« ياعم جومالي ، والله ياعم جومالي ... »

التفت جومالي الى الوراء بحدة وقال :

« اذهب ، ليبلك الله ! اذهب ونم ! اذهب ونم في الجحيم ! »

قال الصبي بصوت كالأنين :

« والله ياعم جومالي ... »

« قلت لك أذهب ونم . »

ظل مصطفى في مكانه مطرقا وجامدا حتى طلوع الشمس وارتفاعها فوق التل المقابل ، حيث جرفه النوم ثانية .

محرقة الطابوق هي عبارة عن حفرة واسعة ، نصفها العلوي فوق سطح الارض ، وقد شيد قبة وغطي بالتراب .

حين يبدأ الطابوق بالاحتراق يأخذ لونا رصاصيا في اليوم الاول ويتحول الى السواد في اليوم الثاني ويبقى كذلك حتى اليوم الثالث ثم ينقلب لونه احمر تماما . كان الوقت ضحى حين استيقظ مصطفى ، وتذكر الليل وهم ان ينهض لكنه عجز عن ذلك. فتح عينيه بصعوبة ونظر تجاه المحرقة ، فلمح السيد حسن هناك . مشى نحوهما ببطء ، وبعد ان أستدار حول المحرقة نظر الى الداخل ، كان الطابوق يلمع مثلما البلور الاحمر .

تجنب مصطفى النظر اتجاه السيد حسن ، فاقترب منه هذا، وقال ضاحكا :

« هل ارسلناك للنوم هنا يا مصطفى ؟ »

قال مصطفى :

« والله يا عم ، كل ليلة ... »

نظر اليه جومالي بغضب .

سدا فوهة المحرقة . وكان الجو وكأنه يفور في حر الظهيرة. هرع مصطفى نحو النهر الذي يبعث بشعاعه الى كل الجهات . وأذ دخل الماء المته الخدوش التي احدثتها الاشواك . لكنه خرج

نظيفا معافى • وكان يعدو ليصل البيت سريعا ، وقد غمرته موجة فـرح •

صاح حين اقترب من البيت :

« أماه ، أماه •• »

خرجت الام وصاحت حين رأته واخذت تضرب ركبتيها :

« أواه يا صغيري ، أواه ، ما الذي أصابك ؟ »

تسمّر مصطفى في مكانه وكأن الدم قد جف منه • كـان وجهه متيبساً محترقا ومتمزقا ، وعيناه غائرتين •

« اواه يا صغيري ، اواه يا صغيري •• ما الذي فعلوه بك ؟ »

واحتضنته واخذته الى الداخل •

في الصباح ، عانق مصطفى أمه قائلا :

« السروال الابيض • »

قالت الام :

« لا يمكن ••• »

سأل مصطفى :

« الا يليق بي ؟ »

احتضنته الام وقبلته •

ذهب الى الحاج محمد واختار حذاء مطاطيا ابيض وزوجا من جواريب بيضاء • ثم ذهب الى الاسطة وايس • وقال له هذا :

« يا مصطفاي ، سأخيط لك سروالا جميلا • »

ثم ذهب الى الحانوت • وكان الاسطة قد جاء مبكرا وبدأ عمله • وكان له حاجبان كثان وظهر محدب قليلا • ولحيته نبتت طويلة • وكانت رائحة جلد عتيق ومدبوغ تفوح من المكان الذي يغطيه الغبار ونسيج العنكبوت •

قال مصطفى :

« يا اسطة ! سيخيط الاسطة وايس سروالي كأجمل ما يكون •»

قال الاسطـة :

« أجل ، انه رجل طيب • »

مرت أيام ثلاثة ، واربعة ، ثم اسبوع ولم يظهر للسيد حسن أثر • بل انه لم يمر من هناك قط • وكان مصطفى قلقا ومتألما دون ان يفتح فمه بشيء لاسطاه او لأمه •

ويوما ، مر السيد حسن من امام الحانوت • فنادى عليه الاسطة :

« يا سيد حسن ، لو دفعت لهذا الصبي أجره • »

توقف السيد حسن ، وفكر مليا ، ثم حرك رأسه • وقال :

« حسـنا •• »

أخرج ليرة ورقيه وقطعتين من فئة الخمسة وعشرين قرشا ووضعها على المنضدة •

حدق الاسطة في المبلغ طويلا :

« انه أجر يوم واحد يا سيد حسن ، بينما الولد اشتغل ثلاثة ايـام • »

قال السيد حسن :

« لكنه كان نائما طوال الوقت . كان ينام كل ليلة .. لقد أضفت أجره على أجر جومالي . وها انا اعطيته هذا اكراما لك . »

« والله يااسطة ، كل ليلة ... » قال مصطفى هذا وانحبس الكلام في حلقه ، ثم احنى رأسه .

قال الاسطة بعد صمت طويل وحزين :

« انظر اليّ يا مصطفى ، لقد تعلمت الان جيدا كيف ترتق الاحذية، لذا ستأخذ مني منذ الان ليرة كاملة لكل اسبوع عمل . »

رفع مصطفى رأسه بخوف ، والتمعت عيناه المبتلتان . ثم ضحك جذلا ، وضحك الاسطة ايضا .

فكر مصطفى :

« اليوم هو العاشر من تموز . اسبوع ، اسبوعان ، ثلاثة .. وينتهي بعد ذلك . »

قال الاسطة :

« خذ هذا واعطه للاسطة وايس . وبلغه تحياتي . ليقتني لك أفضل نوع من القماش ، وليعد اليك زيادة المبلغ لتشتري بها حذاء . اما مبلغ الليرة والنصف هذا فسأخذه الان وستبقى مدينا لي باجر ثلاثة اسابيع ونصف .

في تلك الايام ، كانت على الورقة الزرقاء من فئة الخمس ليرات ، صورة ذئب مسرع متدلي اللسان ، وكأنه يطير .



الفــراش

اتذكر وكأن ذلك حدث الان .

كنت في الصف الثالث من الدراسة المتوسطة في ذلك العام . وكان صاحبي دورموش علي في الثاني . وكلانا كنا معدمين . وكانت أمانا أرملتين في القرية ، تدبران أمر حياتهما بمشقة .

كان أمل دورموش علي ، في قبوله في القسم الداخلي ، وكان واثقا من نجاحه في الامتحان الذي دخل فيه . أما أنا فكنت غارقا في اليأس ، أين أولي وجهي ، وماذا أفعل ؟ المصنع الذي كنت أشتغل فيه منذ عامين رفض قبولي هذا العام ، لان تشغيل الطلاب كان محظورا في المصنع ! أما لماذا ، فهذا مالم أفهمه قط . وكانت الامور تسير بشكل حسن حتى هذا العام. كنت أدرس واعمل معا.

معدم ... لا أملك حتى حفرة أضع عندها رأسي ! وحيد ، لا سند لي وسط هـذه المدينة الواسعة ! في داخلي حـزن وحنـق لايحتملان . قضيت الليالي مع دورموش علي تحت اشجار الكنين امام المحطة لفترة من الزمن . لكن هذا لم يستمر لنا ايضا . فلم يكن الحراس يدعوننا وشأننا . وكنا مضطرين للذهاب الى المدرسة واذا ذاك .. الا يسرقون فراشينا من الساحة ؟

كان لي صديق حميم هو يوسف . وقد عرف بشكل ما اننا نبيت ليالينا في العراء تحت اشجار الكنين .

قال يوما بخجل :

« لو تنامون فوق سطحنا . »

جننا فرحا انا ودورموش علي ، تعانقنا وتبادلنا القبلات .
ثم هتف دورموش علي : « مرحى .. لقد عشنا يا اخي .. لنسعد ولو ليوم واحد . » كنا نعرف ، اننا نستطيع النوم على السطح حتى بدء امطار الخريف . ومن ثم سنوكل أمرنا لله .

نقلنا فراشينا من المحطة حالا . كان بيت يوسف مكونا من غرفة واحدة عند محل السوق . وفرشنا الفراشين على سطح الدار .

استشعرنا فوق السطح دفء البيت ، بيت أهلنا ، بعد ان تخلصنا من مضايقات الحراس ومن اشياء كثيرة اخرى .

اذن فنحن الان نملك مآوى بعد كل تلك المحن . ما اجمل هذا الشيء الذي يدعونه بالحياة !

في المساء ، وحال ما ننتهي من طعامنا ، كنا نقفز الى السطح ونندس في فراشينا ونسحب غطاءينا حتى اعناقنا . وكانت الليالي باردة لكنها ممتلئة بنجوم كبيرة ولامعة . وكنا نجد صفحة السماء في بعض الليالي مفروشة بالنجوم ، فنظل نحدق فيها ، وانذاك ما كان هناك شيء يعادل فرحنا قط ، فنمتلىء أملا ونوقن ان الايام الجميلة القادمة بعد الضيق والاحزان ، ستكون اكثر سعادة .

وكنت انا صاحب هذه الامال والاحلام ، أرددها دائما ، دورموش علي يصغي اليها ويصدقها •

كنت أسأله :

« أليس كذلك يا دورموش ؟ »

وكان يجيب :

« بالطبع يا اخي ، فالصباحات تأتي عادة بعد الظلمات • »

وحتى هذا الكلام ، تعلمه مني ايضا •

استمرت البرودة المنعشة للسطح وليالي النجوم الكبيرة واللامعة ، وضجيج الشارع المستمر حتى الصباح وامالنا وخيالاتنا ، استمرت شهرا كاملا ، حتى بداية تشرين الثاني •

وبعده ••• بدأ مطر جوقوراوا ، هذا البلاء المظلم الذي يشبه ستارا من القماش الاسود حين يهطل •

واذ كنا نرى تجمع الغيوم في السماء ، كنا نقترب انا ودورموش ونلتصق ببعضنا ونحن نهتف معا :

« يا رب ! يا رب ! أرحمنا ولا تفعله • »

وحين يبدأ المطر بالنثيث ، كانت القيامة تقوم في صدورنا ، فيترك دورموش علي المدرسة مسرعا الى البيت ، وينزل الفراشين الى تحت افريز السطح ، ثم يعود راكضا •

في الايام الماطرة ، كنا نعود الى البيت ، الى تحت الافريز ، بعد منتصف الليل ، حين ينسحب الجميع ويهدأ كل شيء • وندخل في فراشينا بصمت • وكنت اخجل كثيرا من رؤية الاخرين لنا

ونحن ننام هناك . اما دورموش فلم يكن مهتم لذلك البتة .

أحيانا كنت اتأخر في النوم ، وحين استيقظ فجأة ، كنت أجد والدة صديقي والجيران والاخرين قد استيقظوا قبلنا وبدأوا يتجولون في باحة البيت ، فكنت اسحب الغطاء الى ما فوق رأسي جيدا حين كنت اسمع وقع الاقدام حولي ، وانكمش في الفراش واتضاءل حتى أتلاشى . وما ان ينقطع وقع الاقدام ، حتى كنت اقفز من الفراش وارتدي ثيابي واهرب .

ولو توهمت ان احدا ما كان ينظر الي وانا ارتدي ثيابي ، كان الدوار يأخذني ولا اعود الى حالتي الطبيعية حتى المساء .

ما كنت أرغب في النظر الى فراشي ، فقد كان ملطخا بالطين الطافر من خارج الافريز .

في احد الصباحات التي تأخرت فيه عن النهوض مبكرا ، وبعد ان ارتديت ثيابي واخذت طريقي منسلا ، التقيت وجها لوجه مع والدة صديقي . كانت عيناها مفتوحتين على سعتهما في رأسي مغطى بالشعر الابيض ، تحدقان فيّ برثاء . وما زلت ، وبعد ان مرت كل تلك السنين الطويلة أحس بوقع نظرات الرثاء تلك عليّ حتى الان . ولو عشت ألف عام بعد ، ستبقى تلك النظرات مغروزة فيّ كذلك .

قلت لدورموش علي في المدرسة :

« لن أعود الى ذلك البيت ثانية . »

فسألني بحيرة :

« ولكن لماذا يا اخي ! واين ستنام ؟ »

ومهما حاول لم يفلح في اخذي الى البيت في ذلك اليوم .
ومن ثم بدأت اقضي ليالي ، فوق المصطبات امام المحطة .

استمر المطر في توقفه فترة من الزمن .

قال لي دورموش علي يوما :

« أخي ، صعدت الفراشين على السطح ، فهيا تعال ! »

ذهبت .

في عصر احد الايام ، هطل المطر غزيرا ، وكأن السماء قد أنشقت . فأسرع دورموش الى البيت ، لكنه وجد الفراشين غارقين في الماء . كنت اعرف فندقا ، سبق وان مكثت فيه عدة أيام .. فندق الوطن الجميل . وكانت اجور الفنادق في تلك الايام رخيصة جدا ، ولا يكلف المبيت فيه اكثر من خمسين قرشا . لكن ، هذا المبلغ كان كبيرا في حينه ! ولاننا نملك فراشينا ، فقد رضي كاتب الفندق أن يؤجر لنا مكانا للمبيت في الممر بعشرة قروش لكل منا .

وفرشنا فراشينا امام بابين ينفتحان على الممر الضيق .
وجلسنا خارج الفراشين ، مستندين بظهرينا الى الجدار دون ان نتحدث او ينظر احدنا في وجه الاخر .

انتصف الليل ، وكان الفراشان ممددين أمامنا ، والنوم يحاصرنا ويسيل من عيوننا ، لكننا ما كنا نجرؤ الدخول في

الفراشين • وكانت عيوننا تحدق فيهما والحسرة في اعماقنا • حسرة نوم في فراش مريح •

كنا نصف نائمين ونصف متعبين • حـين تناهى الى سمعي وقع اقدام من الاسفل • وكان الليل قد تجاوز منتصفه • ففتحت عيني ولمحت امرأتين شابتين على السلم •

فتحتا الباب وهما تجهدان ان لاتطأ الفراشين •

عادت احداهما وكانت رشيقة وفارعة الطول ، من الداخل ، وحدقت فينا بحيرة • ثم دخلت ، وخرجت ثانية وأخـذت تحدق ايضا • ودخلت ثم خرجت ، ثم دخلت وخرجت ايضـا • وكانت مضطربة . واخيرا جاءت ووقفت دون ان تقول شيئا • ثم قالت فجـأة :

« هل عندك علبة كبريت ؟ »

ناولتها العلبة • كانت تحدق بحيرة • فاشعلت سيجارتها ، ومدت لي واحدة • لكنني لم اخذها • ولم تلح هي • وسألت :

« أهذين الفراشين لكما ؟ »

« نعـم •• »

« الوقت متأخر ، لو تناما • »

لم يكن بالامكان تمييز رطوبة الفراشين ، لان المصباح مطفىء قلت :

« لسنا راغبين في النوم بعد •• »

التفتت الى دورموش علي ، وكان هذا نائما .
لكزته فأستيقظ ، ولمحت المرأة ما فعلته .
« من الافضل أن تناما . »
قال دورموش علي :
« اشـ .. »
فاطبقت على فمه بحدة .
ارتبكت المرأة وقالت :
« هل كان الصبي يود ان يقول شيئا ؟ »
« انه أحمق .. » أجبتها .
ويبدو انني قلت ذلك بعصبية ، اذ سرعان ما عادت المـرأة الى غرفتها . وكنت احدق من ورائها ، فترسبت في عيني خيـال خصر دقيق .
قلت بهدوء لدورموش علي :
« انها امرأة فاتنة ، فاتنة جدا . »
شعرت بحنق حين سمعت صوت قهقهتها من الداخل . وقلت :
« انهن فاتنات ، لكنهن قذرات ، والا ماذا يفعلن في الفندق .. »
ثم صمتنا . من يدري كم من الاحاديث والخيالات كنـا نسجها انا ودورموش علي حول هذه المرأة ، لولا أحزاننا ورطوبة فراشينا .
نمنا .. وحين فتحت عيني على صرير الباب ، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة أو الرابعة ليلا . فرأيت المرأة بقميص النـوم

وهي تنزل من السلم . ثم عادت بعد فترة قصيرة ووقفت امامي .

كانت شبه عارية ، وكان قميصها مفتوحا يكشف عن صدرها.

أخذت تحدق فيّ بعينين مفتوحتين يمتزج فيهما الغضب بالنعاس كلما استمرت في تحديقها ، كنت اتضاءل في مكاني ، فاغمضت عيني بحدة ولفترة . ثم فتحتهما ، لكني وجدتها لا تزال واقفة في مكانها . قلت في نفسي : « لماذا تقف وتنظر هكذا ؟ انها قذرة . هذه الخنازير القذرة تحدقن هكذا . ثم ما علاقتها بنا ، لماذا تتدخل في امورنا .. سدّد لكمة الى ذقنها .»

قالت المرأة :

« هل تعطيني كبريتك ؟ »

ناولتها العلبة .

ذهبت وجلبت علبة سجائرها ، اشعلت هي واحدة ، ومدت لي اخرى ، وكنت ارغب في تدخين واحدة . ولكني قلت لها :

« لا أرغب في سيجارتك . »

أرتسمت على وجهها ابتسامة لطيفة ، واخذت تستفزني :

« ولماذا ايها السيد الصغير ؟ »

« لست سيدا صغيرا ، انني لن ادخنها . ومن تكونين انت ؟ لن ادخن .. »

قالت :

« ها ، حقا ، لماذا لا تنامان ؟ ان فراشيكما جاهزان . »

قلت بحدة :

« وما علاقتك انت ؟ »

« انظر ، ان الصبي نائم ، لماذا لا تنام انت ايضا ؟ »

« لا ننام لن ننام ، لا نرغب في النوم • »

« لمـــاذا ؟ »

كنت خائفا من انها ستحدق في الفراش وتلاحظ بلله •

صمت كمجنون :

« لا ننام ، لن ننام •• »

قالت المرأة :

«أ•• أ •• أ•• ولماذا تصرخ هكذا ؟ لقد اشفقت على هذا الصبي، انه ينام هناك ، وسيصاب بالبرد •»

لكزت دورموش علي بحدة ، فانتفض وفتح عينيه بخوف •

قلت :

« انهض يا هذا ! انهض بدلا أن تنام هنا • »

لم يعرف الصبي ما حدث ، اغمض عينيه ثانية وسقط راسه الى أمام • لكزته مرة اخرى • ولم اكن ارفع راسي لانظـر الى المرأة • كنت متأكدا ان عينيها تحدقان في" بشكل قاتل •

« انهض يا هذا ، انهض الى فراشك ، ونم هناك ! »

بدأ الولد ينزع ثيابه ويحك انفه • وهو بين اليقظة والنوم• ويقول :

« حقا ، لماذا انام هنا ؟ »

مسكته من يده وحشرته في الفراش .

قال دورموش بصوت خفيض ، يكاد لا يسمع :

« اخي ، كم هو بارد ! »

وحتى ابعد المرأة عني ، نزعت انا الاخر ثيابي بسرعة ودخلت الفراش . وسحبت الغطاء فوق رأسي .

قالت بصوت ساخر :

« لينعم الله عليكما بالراحة . »

انطبق الباب وجاء صوت قهقهتها من الداخل ، فشددت على اسناني بقوة .

كان الفـراش مبللا بالمـاء ، فسرت رعشة باردة في جسدي، وشعرت ببرد قوي في داخلي. فسحبت الغطاء فوق راسي وأسندت ساقي الى بطني وتكورت في مكاني .

سحب دورموش الغطاء عني وقال :

« أخي يا اخي ، اكاد اتجمد من البرد ! »

كنت منكمشا وكانت اسناني تصطك من حنقي .

« يا اخي ، اقول لك يا اخي ! انني أتجمد ! »

رميت الغطاء من فوقي بعصبية قائلا :

« ماذا دهاك ؟ يا اخي ! يااخي ! نم ومت ! »

وسحبت الغطاء على جسدي ثانيـــة ، وكانت رعشة باردة تسري في داخلي وكأن كومة من الافاعي القيت على جسدي .

« يا اخي اشعر بالبرد والله ، اموت من البرد .. انني مبلل بالماء ، يا اخي ، أقول لك ! »

قفزت من الفراش فجأة ، وارتديت ملابسي . وفعل علي مثلي . ثم جلسنا في الركن ايضا . كنا مبللين وكأننا غادرنا الماء تــــواً .

كنت خائفا ، من خروج المرأة الان ، ورؤيتها لنا هكذا ثانية وكنت أرتعش ، وكانت اسنان دورموش تصطك ببعضهما .
لو خرجت المرأة الان !

مسكت علي من يده وقلت :
« لنركض حتى الساحة ، وسنشعر بالدفء .»

ركضنا حتى الساحة . كان الشارع الاسفلتي خاليا تماما . ومن هناك ركضنا حتى المحطة، وكانت قلوبنا تدق بعنف .. وبدأنا نشعر بالدفء . لكننا حين وقفنا تحت اشجار الكنين بعض الوقت شعرنا بالبرد ثانية .

في منتصف ساحة المحطة ، كان يقف عدد من بائعي شراب السحلب ، وكانت مجموعة من الناس يشربون منه . فتراءى لي البخار الصاعد من اقداح السحلب الساخن ، وامتدت يدي الى

جيبي .. ولكن دون جدوى . وكان دورموش يحدق في اقداح السحلب هو الاخر . نشجت دون وعي مني . وفعل دورموش مثلـــي .

لم يكن الفجر قد لاح بعد ، لكن الشفق بدأ ينكشف بعد قليل بطيئا . وكنـــا نرتعش بعنف وقد تقـــوس ظهرانا . التفت دورموش علي الي" وقال وكأنه تذكر فجأة :

« حقا يا اخي ، كيف دخلنا في ذينك الفراشين المبللين ؟ »

حكاية قذرة

كانوا ثلاثة ، وكانوا يفترشون الارض الرطبة وهم يسندون بظهورهم الى السياج المتهدم المبني من الدغل والقصب • ساحبين ركبهم نحو صدورهم • جلس القادم الجديد الـى جانبهم وقطع حديثهم قائلاً :

« لقد فعلها كولن او غلو ثانية ، جبار كولن أوغلو الافطس الذي يأتي بالنساء من القرى الجبلية ويبيعهن • جلب هذه المرة امرأتين جميلتين أيضا • اتباع شباب « مسديك » احداهما فوراً وهم يرقصونها الان ويتسلون بها • ويقول الذين شاهدوها انها امرأة فائقة الجمال •

فيا ترى من اين يجد ابن الكلب هذا كل هاته النسوة ؟ كيف يجمعهن ؟ ان العقل ليعجز عن فهم سر هذا الرجل • انه شقيق الشيطان من أب وأم • »

قال احد الجالسين ملوحا بيده :

« مذ ان وعيت نفسي وانا اتذكر جبار الافطس هذا ، وهو يأتي

بالنسوة من القرى الجبلية ويبيعهن في جوقور اوا • انه يعيش هذه المهنة ، والله يرزق عباده كيفما يشاء ••• »

« بقيت لديه امرأة واحدة ـ قال الجالس في الوسط ـ يقول انه سيبيعها لمن يدفع لها مائة ليرة • »

« هيه •• يكفي أن تملك امرأة جيدة ـ قال الجالس لصقهم ، وكان ساحبا رقبته الى الداخل ـ انها لثروة ، بل هي أفضل من زوج من الثيران خاصة في جوقور اوا • فهي تعمل في الحرث والحصاد وفي وسعها ان تعوض المائة ليرة في صيف واحد • ماقيمة مائة ليرة ؟! »

وصل عثمان في تلك اللحظة ، واتخذ مجلسه معهم وهو يغمغم دون ان يلقي بالتحية • وكان طويلاً عريض المنكبين، شفتاه تتدليان بشيء من البلاهة وعيناه تحدقان بحول •

« عثمان ـ قال الذي كان يتحدث ـ لقد جلب جبار الافطس نساء هذه المرة أيضاً ، وهو يبيع الواحدة منهن بمائة ليرة قل لسيدتك حورو ان تبتاع احداهن لك وتضع نهاية لحياتك العزوبية • ألا يكفي النوم في عنابر التبن ؟ ماقيمة مائة ليرة ياهـــذا ؟ »

« وما أدراني يا اخي ـ قال عثمان هازاً كتفيه ـ الأمر متعلق بسيدتي حورو ! هيه ، هكذا يقولون ، ان جبار الافطس جلب نساءً ايضاً • »

« انها فرصتك الاخيرة ـ قال الاخـر ـ ولن تفوز بها ثانيـــة •

لتدفع سيدتك المبلغ • ألا تستحق مائة ليرة وانت تقوم على خدمتها مذ ان انجبتك أمك ؟ ماقيمة مائة ليرة ؟ تستطيع أمرأة واحدة ان تعوضها خلال صيف واحد • فهي تعمل في البيت وفي الحقل وفي الفراش •• »

نهض عثمان بغتة وهو يقول :

« حسناً ، سأسأل سيدتي حورو ، فانا لا أعرف ! »

« انصرف ! »

قالوا له ، ثم استرسلوا في الضحك من ورائه •

لم تمض غير ايام حتى ألف الناس منظر امرأة قصيرة القامة ممتلئة الردفين ،، تتدلى من ضفيرتها الملقاة على عاتقها ، خرز كثيرة ، تقف بباب عنبر حورو الذي ينام فيه عثمان ، وهي تحدق يمنة ويسرة بعينين اتسعت حدقتاهما من الدهشة •

ذات يوم ، جاء صبي صغير أسود ، وجهه بحجم راحة يد ، مسرعا الى أمه الجالسة لصق عتبة الباب وقد أخذت رأس كوتوجه دونه فوق فخذها لتفلي قمله •

« اماه—صاح الصبي—» أماه ، لتعمي عيناي ان كنت اقول الكذب لقد شاهدتهما بعيني • زوجة العم عثمان أجير الخالة حورو مع ••• ! »

رفعت كوتوجه دونه رأسها وصاحت متسائلة :

« ماذا قلت ؟ ماذا قلت ؟ ماالذي حدث لزوجة عثمان ؟ »

« تعرفين ابن الاغا ، لتعمي عيناي ان كنت اكذب • لقد شاهدته

بنفسي وهو يدخل بيتها ، وراقبتهما سراً • نزع جزمتـه
الصفراء اللامعة ثم دخلا في الفراش•• لتعمى عيناي اذا•••»
« لقد عرفت ذلك ــ صاحب كوتوجه دونه ــ لقد تنبأت بمصيرها
هذا • »
« لكن عثمان ليس برجل ــ قال أم الصبي ــ لتدفن رجولته ،
انه مثل زوجة لحورو السليطة اللسان • لتدفن رجولته ••»
« توقعت هذا مذ دخلت فاديك هذه القرية ــ قالت دونه ــ قلت
ان هذه المرأة لعوبة • دوما تلزم الصمت • وقد قيل :
حذار من الماء الجاري ببطء ومن الشخص الصامت ••• »
ثم نهضت مسرعة واخـذت تتنقل بين البيوت ، تسر الخبر
لكل من تلقاه :
« هل سمعت ؟ لقد تحقق ماتوقعته تماما •• الماء الجاري ببطء ••
أبن الاغا •• فاديك •• »
ولم يمض كثير وقت ، حتى كانت نساء المحلة جميعهن قد
اجتمعن امام باب آنشا وهن يطلبن من الصبي ، ربما للمرة
المائة ، ان يعيد عليهن ما شاهده بالتفصيل • وكن يصمتن
لهنيئة ثم يسألنه فجأة :
« قل ، كيف شاهدتهما ؟ »
فيعيد الصبي نفس الكلمات وبذات الطريقة والحماس :
« لتعمى عيناي اذا كنت أكذب • دخل ابن الاغا وبسط الفراش ،
وانا أراقبهما من ثقب السياج ، ثم قاما ببعض الاشياء •

وكانت زوجة عثمان تبكي وتقول : « لن أفعلها .. » وخلع ابن الاغا جزمته اللامعة . فركضت انا من ثمة . »

كانت النسوة اللائي سمعن الخبر ، يدخلن في مجموعات اخرى وينقلن اليهن ماسمعنه ، حتى لم يبق في القرية بعد فترة وجيزة أحد لم يسمع به . وكانت كوتوجه دونه تسر النبأ لكل من تلقاه في الطريق ، حتى التقت عثمان نفسه ، فسحبته الى زاوية كوخ وقالت له :

« هل سمعت ؟ لتعمى عيناك ! هل سمعت بما جرى لك ؟ لقد تلوثت سمعتك ، ابن الاغا مدّ اصبعه الى زوجتك ايضا . انقذ شرفك ان كنت قادرا على ذلك ! »

لم يفقه عثمان من الامر شيئا . وهز كتفيه ببطء قائلا :

« وما أدراني انا ! سأسأل سيدتي حورو ، ما الذي يريده ابن الاغا هذا من زوجتي ؟ »

« ما الذي يريده ابن الاغا ؟ » صاحت كوتوجه دونه ساخطة

« ايها الابله ، ان زوجتك اصبحت عاهرة ، وتحول بيتك الى مبغى يدخله من يشاء .. »

ثم مشت مسرعة وهي تبصق في الارض :

« تف عليك .. تف على رجولتك ، ايها الخنزير القذر . لقد تحول بيتك الى مبغى يدخله من يشاء . »

اضطرب عثمان وتضايق وصاح من ورائها :

« ولماذا تصرخين هكذا يا امرأة ؟ سيظن من يسمعك ان هناك
شيئا ما قد حدث • وما ادراني أنا ؟ سأسأل سيدتي حورو ،
فهي تعرف مثل هذه الامور • »

في طريقه الى البيت وهو يمشي مضطربا وذراعاه تتدليان الى جانبيه وكأنهما الصقتا بكتفيه بعدئذ ، وانفرجت اصابعهما ، صادفته جارته زينب هذه المرة • فأستوقفته وحدقت في عينيه طويلا ، ثم قالت له صائحة :

« واه عثمان ، الموت أفضل لك ! لماذا لا تدفن نفسك في التراب ؟
ليتني حضرت يوم موتك ! هل سمعت بما جرى ؟ زوجتك
ياعثمان •• هي الاخرى ايضا ! أبن الاغا •• ! القرية كلها
عرفت بالامر ! أجل ياعثمان ، لقد تلطخ شرفك واه
عثمان ! ليتك لم تتزوج بدلا من هذا الامر ! كان هذا متوقعا
ما دام هناك ابن الاغا •• واه عثمان ! »

أصغى عثمان اليها بذهول وقد انفرجت أصابع يديه مثل مذراتين :

« وما ادراني انا — تمتم قائلا — سيدتي حورو تعرف كل شيء !
سأذهب واسألها • »

استدارت المرأة مسرعة فانتفخ ثوبها في الريح ومشت مرددة :

« مت ياعثمان ! اذهب وادفن نفسك حيا ! عثمان •• ن ! »

وكان عدد من الصبية يلعبون بجوارهما ، فاخذ واحد منهم يردد بتناغم وهو يلعب :

« مت عثمان عثمان ! مت عثمان عثمان ! اسمع عثمان عثمان ! مت
عثمان عثمان ! »

وردد رفاقه ما يقوله دون ان يكفوا عن لعبهم • فالتفت اليهم
ثم مشى •
عثمان قائلا :

« وما ادراني انا ؟ ان سيدتي حورو تعرف •• »

دخل عثمان بيت حورو قبل ان يذهب الى عنبر التبن الذي ينام
فيه • فوجد حورو وهي تغزل في دولاب الغزل ، وفاديك تجلس
صامتة قرب الموقد تمضغ اللبان ببطء •

« أماه قال عثمان ــ هل سمعت بما جرى لي ؟ كوتوجه دونه
تقول ان شرفي قد تلطخ •• »

اوقفت حورو دولاب الغزل وصاحت بحدة :

« ماذا قلت ؟ كوتوجه دونه ثانية ؟ مرة اخرى ؟ »

« وما ادراني أنا ؟ كوتوجه دونه تقول ان فاديك ••• »

« انظر ياعثمان ــ قالت حورو ــ لاتصدق كلام تلك العاهـرات
الكاذبات ، أنهن يشاهدن القشة التي في عيون الاخـرين
ويعمين عن القوازيق التي في دواخلهن • ان زوجتك جميلة،
اين تجد مثل هذه المرأة ؟ »

« لا اعرف ، ولكن كوتوجه دونه واختي زينب قالتا : ليتك مت ،
والاطفال قالوا نفس الشيء كذلك •• »

« اسكت ــ صاحت حـورو غاضبة ــ الجميع يطاردون المـرأة

الجميلة . والكل يبحثون عن قشة في عيون الغير دون ان يروا
قوازيقهم .. »

« وما ادراني . انا ؟ »

قال عثمان وهو يبتسم بارتياح .

حين ترون النساء مستلقيات تحت الشمس الدافئة في جو سكنت ريحه وقد أرحن رؤوسهن فوق أفخاذ رفيقاتهن وهن يفلين قمل بعضهن البعض حتى تصطبغ اظافر ابهامهن بالدم الاحمر . اعلموا انذاك ان الربيع قد حل في جوقور اوا .

كان يوما دافئا من ايام الربيع هذا ، وقد تمددت مجموعة من النساء على الارض ، يتفصد عرق خفيف عن اجسادهن ، وهن يفلين قمل بعضهن البعض ويثرثرون . واصوات الحمير والجياد تسمع من خارج القرية . والدجاج يتمرغ في التراب مع افراخه بالقرب منهن . وكانت شمس الربيع تسري الخدر في الاجساد وتدفيء الدماء .

سحبت كوتوجه دونه ، التي كانت تريح راسها على فخذ امرأة ، ساقيها الطويلتين المتربتين نحو بطنها ، ثم تململت قليلا .
« كلا ، يا اختاه ، كلا ــ قالت مقاطعة المرأة التي كانت تتحدث ــ لم يحدث الامر عنوة كما تظنين ، لكنها لم تطق صبرا رات جزمته الصفراء اللامعة ، فرقدت تحته . كيف تصدقين حوروجه ! لتقنع نفسها بكلامها . »

« ان حورو هذه محفوظة يا بنيتي » قالت العجوز زالا ذات الشعر الابيض والفـم الخالي من الاسـنان ، بعد ان مسحت دم اظافرها ، واردفت : « كان عثمان صبيا بحجم اليد حـين استخدمته ، وها هو عندها حتى اليوم لخبز كفافه فقط • انه يعمل بقدر ما يعمله رجال القرية جميعا • والان جاءت زوجته ايضا، فلتهنأ حورو ، فهما لن يدعاها لتفعل شيئا •• »

« طير السعد هذا لا يحط على كل راس ـ قالت امرأة اخرى ـ الرجل وزوجته يخدمانها معا • »

« لخبز كفافه فقط •• » قالت العجوز زالا •

« كانت لحورو زوجة واحدة ـ قالت كوتوجه دونه ـ واصبحت لها الان زوجتان • فعثمان منذ البداية مثل زوجة لحورو • »

« زوجة ، اجل مثل زوجة لها • » رددت البقية معا •

« تقول حورو ان ابن الاغـا اغتصبت فاديك جبـرا ـ قالـت كوتوجه ـ حسنا ، وماذا عن البقية ؟ ماذا عن أولئك الذين يلازمون بابها حتى الصباح كالحراس ؟ انها لا ترد احـدا حتى الصغار ، فبابها يزدجم بالفتية حتى الصباح ، وكأنها القيامة قامت ! »

« انها تثير الحيرة ابنة العاهرة هذه ـ قالت امرأة ثانية ـ ولكن هل تعرفون ان كلبة عمرجه الصفراء قد تخلصت من ايـدي الفتية مذ ان جاءت فاديك الى هنا ؟»

« أجل ، لقد وجدوا شيئا أفضل منها ! » قالت النسوة ضاحكات.
قفزت زوجة عمرجه القصيرة من مكانها وصاحت معترضة :
« ماذا تقولون ؟ من الذي دنا من كلبتنا الصفراء ؟ انت هكذا دائما تلوكين سمعة الاخرين يا أليف ! بالله عليك لا تطعني في اعراض الناس ! »
« أليس صحيحا ماقوله ؟ ـ قالت كوتوجه متحدية ـ متى شاهدتي الكلبة الصفراء واقفة تنبح امام بابكم ؟ الا تعود كل صباح وحبل يتدلى من عنقها ؟ قولي ، أليس كذلك ؟ »
« لاتفتري بالله عليك ـ أحتجت زوجة عمرجه ـ لم هذاالافتراح على كلبتنا ؟ حاذري ان يسـمع عمرجـه بهذا ! سيضرب الكلبة ،أجل ، والله سيضربها ! »
« هية ! ـ قالت كوتوجه ساخرة ـ وكأن عمرجه يجهل حتى الان بان الكلبة الصفراء هي مثل زوجة لفتيان القرية ! وهـل بقي أحد في القرية لم يسمع ان يومرو ولي ضبط الفتية معها قرب النهر ؟ كيف تجرؤين على الدفاع عن كلبتك ؟ »
« لا تقولي هذا يا اختي ـ قالت زوجة عمرجه محذرة ـ لا تفتري مثل هذ الافتراء • ان عمرجه سيقتل الكلبة اذا سمع بهذا ، اجل سيقتلها • »
« وماذا تريديننا ان نفعل ؟ ليقتلها ! ـ قالت كوتوجه ساخرة ـ جاءت فاديك فتخلصت الكلبة الصفراء وأتان والو الكردي ايضـا • »

تململت زوجة والو الكردي بعصبية وقالت :

«نحن ؟ انها ليست غلطتنا يا اختاه . لقد حبسنا أتاننا في الداخل ومع هذا كسروا الباب ودخلوا عليها . فغضب والو كثيرا وقال انهم وحوش والا هل يمكن فعل ذلك مع حيــوان ؟ انها خطيئة ! وقال انه سيقتل احدهم . لقد فقد والو صوابه من غضبهوذهب الى المختار . سيبيع والو الاتان . »

« يقينا انهم لن يتركوا هذه المرأة في القرية ــ قالت كوتوجه ــ سيجعلونها مثل عائشة ايضا . »

« واه ــ قالت زالا متنهدة ــ كانت عائشة امرأة نادرة قبــل ان يزج بزوجها المسكين في السجن . وما كانت تستحق ذلك المصير . لكنها كانت وحيدة بدون سند : ليت الذين تسببوا في مصيرها فقدوا أبصارهم ، لقد ماتت وانتهى أمرها .

«أجل لقد ماتت وانتهت ــ قالت كوتوجه

رفعت كوتوجه دونة رأسها من فوق فخذ المرأه . وتبادلتا وضعيهما وبدأت هي هذه المرة تفلي قمل رفيقتها .

« اختاه ــ قالت كوتوجه ــ ان قملك هذا لاينتهي بالفلي . لقد غطى الدم الاحمر يدي . يقولون ان الحكومة وجدت دواء يقتل القمل يسمى « ده ــ ده » ليتنا كنا نملك مقدار ملعقة منها ! ... ان حوروجه تدافع عن تلك العاهرة ، وهي تحرسها حتى الصباح وتطارد الفتية بهراوتها ، ثم تقول انها شريفة . »

« فلتقنع نفسها بكلامها هذا . انها محظوظة ، والا فمن اين تجد شخصين مثلهما يخدمانها ؟ ثم ماذا يهمها هي ؟ »

« اجل ماذا يهمها ! « رددت النسوة معا .

« انه ليس بجسدها ، فليفعلوا بجسد فاديك ما يشاءون - قالت كوتوجه ضاحكة - لكن هذه المرأة تثير العجب ، لقد أشبعت شباب القرية جميعا ،واذا ضاقت بهم فان حوروجه تعاونها !»

قالت زالا :

« يابنيتي ، يابنيتي ! ان حوروجة هي الاخرى تستلذ ! »

في تلك اللحظه ، برزت حورو بغتة من خلف الكوخ ، كانت امرأة طويلة ، ممتلئة ،وجهها متغضن وذقنها مستدق وفمها خال من الاسنان ، لااثر للبياض في الشعر المصبوغ بالحناء دائما . وتخصرت بيديها ومالت جسمها الى الامام وصاحت باعلى صوتها :

« ايتها العاهرات ، يا عاهرات أدنه ! لقد بدأت ألسنتكن القذرة تلوك زوجة المسكين . هل انتن اشرف منها ؟ ماذا تريدن من تلك البائسة ؟ »

ثم خطت خطوتين نحو كوتوجه التي انكمشت في مكانها . وصاحت :

« انظري يا كوتوجه ، ايتها العاهرة القذرة . عليك ان تغلقي فمك والا سأفضحك وافضح زوجك ، ذلك الذي يحسب نفسه رجلا ، وسأكشف حقيقتك للناس ، انت تعرفينني جيدا . اليس كذلك ؟ »

شحب وجه كوتوجه ، وقالت وهي تتلعثم :

« أماه ، أنا ؟ اقسم انني لم أتحدث بشيء ما . انها سمعة الناس . »

بدأت النسوة يتفرقن باستثناء زوجة والو الكـردي التي استمرت تفلي قمل صاحبتها ، غافلة عما يجري حولها وهي تقول :

« يقول والو ، لو ان امرأة مثل هذه كانت في مدينتنا لاحرقوها وهي حية ، ويقـول ان جوقـور اوا تفتقر الى الغـيرة والشرف . »

لم يكن الفجر قد بزغ بعد ، حين بدأ الاطفال والنســاء بضجيجهم وصياحهم ، يسوقون الثيران الـى المراعي . وكانت النساء بمئازرهن الحمراء ينحنين وينهضن امام الابواب في الظلمة الخفيفة وهن يخضن ممخضة اللبن ، ورائحة الربيع الندية تفوح في الجو الرطب .وكان عثمان واقفا امام الباب الى جانب الثورين المشدودين بالنير .

خرجت حورو وقالت :

« عثمان ، يا اسدي .لاتعد الى البيت قبل ان تنتهي من حرث الحقل كاملاً . وبلغ تحياتي لعائشة ، لتهتم بك جيداً .. »

لم يتحرك عثمان او يتفوه بشيء . فعاعدت حورو قائلة :

« يا صغيري ، اهتم بعملك ، ولا تنس أن حسنة تمر بضائقة هذه السنة ــ ثم اضافت بعد ان ابتلعت ريقها ــ ثم انك تزوجت ايضا . »

لكن عثمان ظل واقفا في الظلمة الخفيفة مثل ظل كبير أسود الى جانب الثورين اللذين كان ذيلاهما يضربان ساقيهما ضربات خفيفة • اقتربت حورو منه اكثر وقالت بشيء من القلق :
« ماالذي حدث لك ياعثمان ؟ ماذا عندك ياصغيري ؟ »

كان عثمان جامداً مثل صخرة • فصاحت فيه حورو :
« لماذا تقف هكذا ؟ ماالذي يدور في رأسك ؟ »
« سيدتي ـ همس عثمان ـ قالت كوتوجه دونه وزينب ، ان بيتي ••• لست أدري ! •• »
« اسكت ايها الغبي، ايها المخصي ـصاحت حورو غاضبةـ ماالذي تريده الآن ؟ لقد دفعت بها مائة ليرة • انت وعاهرات أدنه تلك تأكلون الخراء• لقد دفعت للافطس مائةورقة نقدية جديدة• ما الذي خسرته انت ؟ قد تجد غشاً في الفضة النقية ، لكنك لن تجد في فاديك شيئاً ابداً • يجب ان تعرف هذا جيداً ! فلا تحدثني عن هذا ثانية قط •• ! »
بهت عثمان وغمغم قائلاً :
« وما أدراني أنا •• »
ثم ساق الثورين أمامه •

كان الوقت ضحى ، وكانت شمس باهرة تغمر الحقول الملتمعة التي تداعبها ريح هادئة • ورائحة الارض تفوح قوية • وكان عثمان يجاهد في أنهاض الثورين الأعجفين اللذين حرنا بعد

ان حرثا نصف دونم فقط . وحين فشل وأحمر وجهه تعباً ، جلس فوق رابية وأخذ رأسه بين يديه وهو يقول بحنق : « تف . ان اختي حسنة في ضائقة وانا تزوجت ، تف ، تف ! »

نهض واعاد محاولته دون جدوى ، ففقد صوابه واطبق على خطم الثور الاسود باسنانه . ثم نهض وهو يترنح وبصق ما في فمه من الدم .

« لو رآني احدهم هكذا ـ همس مع نفسه خجلاً ـ لأخبر القرية حتما ..

ليفعل .. ! لكن ماذا أفعل الان ؟ ان حسنة في ضيق وانا تزوجت . آه ايها الثوران الكافران .. ماذا أفعل بكما الان ؟ »

ظهر يومرو ولي من حقل مجاور وأقترب من عثمان الذي كان مايزال واقفا يحدق في الثورين بحيرة :

« ماذا هنالك ياعثمان ؟ هل حرن الثوران ؟ »

لم يجب عثمان بشيء فاردف الآخر قائلاً :

« انهما ميتان يا عثمان ولا طاقة لهما على العمل ، الا ترى اضلاعهما كيف انها برزت من الهزال ؟ »

قال عثمان وكأنه يحدث نفسه :

« اختي حسنة في ضائقة هذا العام ، وانا تزوجت . لست ادري! »

« ليتك لم تتزوج ـ انتفض يومرو ولي قائلا ـ ليتك مت حين تزوجت . »

« وما ادراني انا ــ قال عثمان ــ سيدتي حورو دفعت مائة ليرة من أجلها • »

قبض يومرو ولي على ذراع عثمان وأجلسه :

« انظر ياعثمان ، لقد بعثني اهل القرية اليك • انك لوثت شرف القرية • اسمع جيدا • قالوا لي : بلغ ابن الخنزير ذاك ان يطلق تلك المرأة • لقد تحول بيتك الى ماخور مذ ان ضاجعها ابن الاغا ، يدخله من يشاء • انه شرف القرية ! وقالوا: اننا سنطردهما معا ، لكن عثمان لا يستحق هذا الجزاء ، فليطلقها • طلقها ، انه شرف القرية ، والشرف لا ينبت في الحقول ! »

كان عثمان مطرقا صامتا مثل تمثال • وتساءل مع نفسه حين تعلقت عيناه بنملة ، عن سبب وجودها واين هو ثقبها • لكنه انتبه من افكاره حين لكزه ولي صائحاً :

« انت يا هذا ، أيها الملعون ، هل فكرت بمصيرها لو سمع البوليس بامرها ؟ انها لا تملك بطاقة شخصية او اية اوراق ثبوتية ماذا لو عرفت الجندرمة بامرها ؟ سيأخذونها حتما ويتسلون بها لشهور • فاياك ان تدعهم يعرفون ذلك • »

انتفض عثمان وغمرته الرعشة وكأن تيارا كهربائيا مسّه ، وقال بخوف :

« أنا الاخر لا املك بطاقة شخصية ولا اوراقا • »

ألقى ولي بحفنة التراب التي في قبضته واقترب من عثمان بعصبية حتى تلامست كتفاهما :

« نحن لا نفهم شيئا في مثل هذه الامــور ، الاوراق من شــأن الحكومة ، والا لماذا وجدت الدولة ؟ أسمع جيدا ، يقول اهل القرية ، لو ان رجال الجندرمة ســمعوا بــها فسيأخذونها ويغتصبونها ، ومن ثم فلا نقدر بعد أن نرفع رؤوسنا خجلا في جوقور اوا • وسنكون هــزؤة للاخرين • فــلا تعبث بشرف القرية ، فالشرف لا ينبت في الحقول • طلق تلــك العاهرة قبل أن تسود العاقبة • أنهم يتساءلون : هل المرأة تلك أعز من حياته ؟ »

« لكن ماذا أفعل بدونها ؟ ــ اعترض عثمان ــ سأموت ، سأعود ثانية الى وضعي السابق في عنابر الناس مثل كلب ما • من الذي سيغسل ثيابي ، ويطبخ لي البرغل كل يوم ؟ سأموت من تناول العصيدة • لن اقدر على العيش بدون امرأة • »

« انظر يا عثمان ، يقول اهل القرية ، ليطلق تلك العاهرة وسنجد له امرأة شريفة • ما قيمة امرأة ؟ انها لا تــكلف اكثــر من خمسين ليرة • سنجمع المبلغ بيننا ونقتني لك واحدة جميلة • وسأختارها بنفسي من فتيات القرى الجبلية • حاذر ، لا تعبث بشرف القرية ، والا ستسوء العاقبة ! وهل المرأة أعــز من حياتك ؟ طلقها ! »

« لا ادري ، ان سيدتي حورو من تعرف هذه الامور • »

قال ولي بغضب :

« لتذهب سيدتك تلك الى الجحيم . طلقها وكفى ! »

ثم لان بعد ذلك وغضب ثانية . تحدث عن الشرف ، عن العاهرة .. قال له ، اننا سنزوجك بافضل منها ، وان اهل القرية قد اتخذوا قرارهم . وتساءل فيما اذا كانت المرأة اعز من الروح . لكن عثمان ظل جامدا كالصخرة لا يتفوه بشيء . وحين عجز ولي عن انطاقه ، بصق في وجهه وذهب .

لبث عثمان في مكانه حتى العصر . ثم خطر له ان يحرر الثورين اللذين كانا راقدين وهما يجتران ، من نيرهما ، ففعل ونجح في انهاضهما ، واخذ طريقه قافلا الى القرية . وذهب في التو الى بيت الاغا في باحته مطرقا ينتظر . وكان يبدو ، في مكانه، وكأنه كومة تراب .

جاء ابن الاغا وترجل من حصانه المبتل بالعرق . لكنه اضطرب حين لمح عثمان ، فاسرع اليه متضرعا :

«ياابن الاغا، ياغاي! انت ابن اغا كبير،ماالذي تريده من زوجتي؟»

شحب وجه ابن الاغا ، واصبح لونه بلون جزمته . واخرج من جيبه ورقة من فئة الخمس ليرات ، مدها مسرعا الى عثمان وهو يتمتم : « خذ !» ثم ابتعد مسرعا ، لكن عثمان صاح من ورائه: « ياابن الاغا ، انك ابن اغا كبير ! لماذا تطردون زوجتي من القرية ؟ بماذا اساءت اليكم ؟ انت ابن اغا كبير .. »

واخذ طريقه متعثرا الى بيت حورو وهو منهك القـوى ، والورقة النقدية ما تزال في يده •

« ما الذي تفعله هنا ايها الخنزير القذر ؟ ــ انفجرت حورو غاضبة حين لمحته ــ لماذا تركت الحرث وعدت ؟ مت ! مت ! ايـها الابله ! »

« انتظري يا سيدتي ، اسمعي ! » قال عثمان مضطربا •

« مت ايها الكلب القذر ، مت ! » قالت حورو بغضب

« انتظري يا سيدتي ، انتظري قليلا •• »

هدأت حورو واخذت تحدق فيه •

« سيدتي ، هل علمت بما جرى ؟ لقد اتخذ اهل القرية قرارهم بطردي • هكذا قال يومرو ولي • قال : الجندرمة ، قال : الاوراق الثبوتية •• واهل القرية يقولون ان زوجة عثمان لاتملك أوراقا •• الجندرمة •• اجل الجندرمة، انهم سيغتصبونها ويتسلون بها ! قال ولي : طلقها اهي أعز من حياتك ؟ قلت له : لا اعرف ، ان ان سيدتي حورو هي صاحبه الامر • لانها هي التي دفعت المائة ليرة لكن ولي قال ان عليّ ان اطلقها لان بيتي تحول الى مبغى وانهم سيطردونني معها من القرية ••• »

أخذت حورو تدور في مكانها وهي هائجة ، ثم ولت وجهها شطر مركز القرية واخذت تصيح بكل ماعندها من قوة :

« ايها القوادون ! لقد اصبحت زوجة هذا المسكين شـوكة في عيونكم • تريدون طردها بحجة انها عاهرة • اذن لمـاذا لا

تطردون زوجاتكم وكناتكم وبناتكم ؟ انهن جميعا عاهرات نبهوا اولادكم ان يكفوا عن نساء العالم ٠»

ثم التفتت الى عثمان ودفعته قائلة :

« هيا الى الحقل ، لن يقدر احد ان يمس زوجتك بشيء مادمت أنا حية ! »

كان القرويون يستمعون الى شتائم حورو وهم مجتمعون كعادتهم في وسط القرية ٠ وحين كفت عن صياحها ، اخذوا يغمغمون مع انفسهم :

« انظروا ماتفعله هذه العاهرة بالقرية ! »

قال محمود اغا الذيب من بين اسنانه :

« انتظري ياحورو ، لست بمحمود اذن لو ادعك وشأنك بعد هذا ! »

كان الليل في نصفه الثاني ، وكان الظلام دامسا ولزجا ، يلتصق بيد الانسان ووجهه ٠ فجأة سمعت حورو ، التي كانت متكورة في زاوية الكوخ وفي يدها هرواتها ، أصواتا تتهامس امام الباب ، واخذ احدهم ينادي بصوت خفيض :

« فاديك ! افتحي يا بنت ، انه أنا ٠٠ »

وفتح الباب بعد برهة بهدوء ، ودلفت الاشباح الى الداخل٠ فغمرت حورو رعشة عنيفة وضغطت على هراوتها بقوة ٠ وقفزت نحو الباب فاصطدمت بالسياج بعنف ٠ واندفع من كانوا في الداخل خارجا وهم يتعثرون بها في الظلام وهي واقفة امام الباب مذهولة٠

ثم اخذت تصيح وتطلق الشتائم وتبحث عن فاديك متلمسة بيديها حتى عثرت عليهـا متكومة في زاويــة ، فشدتهـا من شـعرها وبدأت تضربها بهرواتها وهي تصيح :

« ايتها العاهرة ، ايتها العاهرة ، لم اكن أصدق هذا من قبل ... »

لكن فاديك لم تتأوه أو تتفوه بكلمة ما . واذ تعبت حورو هزتها من شعرها قائلة :

« هي انهضي واوقدي نارا . »

نهضت فاديك ونبشت في رماد الموقد ، حتى عثـرت على شرارة فنفخت فيها طويلا واوقدتها . فسقط الضوء الاصفر على كومة التبن والفراش الرث الذي لم يكن هنـاك شيء غـيره في الكوخ ، واصطبغ المكان كله بلون العسل .

اخذت حورو من يد فاديك التي كانت مطرقـة واجلستها امامها . ثم حدقت في وجهها طويلا وبصراحة . وقالت اخيرا :

« ألم تعدينني يا بنت بان لا تفعليها ثانية ؟ »

لم تجب فاديك بشيء ، فاشتد غضب حورو وقالت :

« ايتها العاهـرة ، أتدرين بانهم سيطردونك من القريـة ؟ هـل تسمعينني ؟ اجيبيني ، ألم تعدينني بان لا تفعليها ثانية ؟ »

تململت فاديك في مكانها قليلا وقالت :

« اقسم بالله يا سيدتي ، انني مادعوتهم ، لكنهم جاؤا من تلقـاء أنفسهم ! »

« ايتها العاهرة ! سيجعلونك مثل عائشة ، انهم ذئاب مفترسة ، سيمزقونك اربا اربا اذا وقعت بين مخالبهم ، ألم تعدينني بان لا تكرريها ثانية ؟ »

« لكنني اقسم بالله يا سيدتي ، انني لم أطلب منهم المجيء .. »

« انهم لن يتركوك سواء طلبت منهم هذا أم لا . ان اباءهم القوادين يلقون باللائمة عليّ . لا يطيقون الليرات المائة التي دفعتها ويريدونها أن تذهب هباء . سيطردونك وسيجعلونك مثل عائشة . هل سمعت بها ؟ انها زوجة علي . وكانا وحيدين لاسند لهما . وحين زج بعلي في السجن لانه سرق شاة من الاغا واقتنى بثمنها ثوبا وحذاء لابنه الذي كان جميلا وفي الثالثة من عمره . وكان يحبه جدا . اخذ صاحب الجزمة الصفراء يطارد المرأة وكأنه بلاء نزل بها ، والمرأة تقاوم بشراسة . لكنه حصل على بغيته في نهاية المطاف ثم سلمها الى هذه الذئاب المفترسة . واخذ عشرون أو ثلاثون شابا يطاردونها من قرية الى اخرى ومن جبل الى اخر . ومات طفلها الذي كانت تحبه جدا عند اناس غرباء ، والذين شاهدوها قالوا انها أصبحت هزيلة وشاحبة مثل مسلولة . ومع هذا لم يدعها الانذال وشأنها .

وذات يوم شاهدنا كلاب القرية وهي ملطخة بالدم ، وصقوراً تحلق فوق السهل فذهب رجال القرية حيث المكان الذي تحلق فوقه الصقور ، فعثروا على عائشة هناك ، وقد نهشت الكلاب

جثتها • لقد عروها وضاجعوها ثم قتلوها • أما رجال الشرطة الذين قدموا من المدينة ، فقالوا انها ماتت لانها لم تطق مضاجعة هذا العدد من الفتية • ومات علي هو الاخر حزنا في السجن حين علم بالامر • أجل ، انهم ذئاب مفترسة ، فلتكن عائشة عبرة لك والعاقبة نفسها تنتظرك اذا ما أفسحت المجال لهم • لتذهب ليراتي المائة الى الجحيم ، فهي ليست بذات أهمية ! أما عثمان فاستطيع أن أعثر له على امرأة ثانية • أتقسمين بان تلتزمي لكلامي ؟

« التوبة ! ــ كررت فاديك ــ التوبة ! التوبة ! »

أعادت حورو ما قالته مرة اخرى حين نهضت متعبة :

« حسنا ، اني ذاهبة الان ، نادي علي اذا ما جاؤوك ثانية • هل سمعت ؟ »

ما ان خرجت حورو حتى اندفع الشباب الذين كانوا يتربصون خلف الكوخ ، الى الداخل •

« لقد كانت حورو تكذب عليك ــ قالوا لفاديك ــ ان عائشة هي

« التي قتلت نفسها • »

يمتد اما بيت محمود اغا الذيب ، مرج أخضر ، الى جانبه كومة من السماد اشبه بتلة صغيرة •

كان الوقت صباحا ، وقد بزغت الشمس توا ونشرت في الجو الساكن من الريح ، دفئا لذيذا • وصعد ديك ونبش في كومة السماد التي يتصاعد منها البخار ، ثم مد عنقه وصفق بجناحيه وصاح •

وكان القرويون يتربعون على العشب صامتين وقد اسند البعض منهم ظهره الى السياج ، يرمقون باطراف عيونهم ، محمود اغا الذيب الغاضب . وهو رجل فارع الطول حتى ان شبحه يبدو وهو جالس مثل رجل واقف على قدميه . وكان يرتدي معطفا باليا اشتراه منذ سنين .

وصل بعد قليل يومرو ولي والذي كانوا قد ارسلوا صبيا لاستدعائه وجلس الى جانبهم . وكان محمود اغا منفعلا ، يمد بين حين واخر الى نظارته القديمة المعدنية والمشددة الى رأسه بخيوط قطنية . ثم التفت الى يومرو ولي وصاح فيه :

« لقد حسبتك رجلا يا ولي ، وظننتك قادرا عليه ، لكنك خيبت ظني . » تململ يومرو وبدا ضئيلا في مكانه . ثم رفع رأسه خجلا ببطء :

« لقد بلغت عثمان بجميع ماقلته ياأغا ، وهددته بالجندرمة . وقلت له ان محمود اغا غاضب عليك وان اهل القرية سيطردونك من القرية بل وسيقتلونك . قال حسنا ، سأطلقها . لكنه لم يفعل ذلك ، واظن ان الامر بيد حورو . »

نهض الاغا من مكانه وعاد وجلس ثانية :

« الامر بيد حورو ، ها ، ـ قال مهددا ـ حسنا ، اعرف كيف سأنتقم منها . »

قال الرجال محرضين :

« أجل ، محمود اغا لقادر على الانتقام منها . »

واستمر محمود اغا قائلا :

« لقد تحملنا الكثير من تلك العجوز العاهرة • تحملنا الكثير •••»

« يا اغا — قال يومرو ولي — انـها تستند الى زوج ابنتها علي جابي الضرائب • يقال انها قالت : لتكف القرية عن ازعاجي والا فسأطلب من علي ان يسلب القرية كل ما تملك • »

« لتطلب تلك العاهرة منه ما تشاء — قال محمود اغا — فانا لست مديناً للحكومة بقرش واحد • »

أرتفعت عدة اصوات معاً :

« لكننا مدينون يا اغا •• وسيسلبنا حتى فراشنا •»

قال احدهم ، وكان صامتا حتى الان ، وهو يلبس سروالا قطنيا من نسيج يدوي :

« انه يغض النظر عما علينا من ديون ، لاجل حورو ، والا لسلب فراشنا من أيدينا • انه رجل عديم الانصاف • »

« حسنا ، ماذا نفعل اذن ؟ —صاح محمود اغا غاضبا— فتيتنا جميعا وراء تلك المرأة مثل ثيران هائجة • لا احد يذهب الى الحقل سيموت أهل القرية جوعاً هذا العام اذا ما استمرت هذه الحال • »

انبرى رجل عجوز من بين الجالسين وقال بصوت مرتعش :

« لقد قضي علي ، تلك المرأة هدمت بيتي • توسلت بابني صباحا ان يذهب الى الحقل • قلت له اننا سنموت جوعاً هذا العام ،

وان الاغا سيطردنا من أرضه لاننا لا نحرثها وقد ملأ الحقول بمضخات الماء • توسلت اليه كثيرا فصفعني على وجهي وترك البيت • لقد حرمت من ابني بسبب تلك العاهرة • سنبقى جائعين هذا العام • فانا عجوز ولاطاقة لي على الحرث لقد قضت علي تلك المرأة ليتك مت ياجبار الافطس ! من اين اتيت بها الى القرية ؟ لم يبق من حل سوى ان اذهب وأقبل قدم حورو •• »

انتفض محمود اغا واقفا وقال بعصبية :

« حسنا ، أعرف كيف سأسوي أمري معك ياحورو • »

ومشى ، فردد القرويون وراءه :

« أجل ، ان محمود اغا يعرف كيف سيسوي أمره معها •• »

وقف محمود اغا امام كوخ وصاح :

« خديجة ، ياخديجة ! »

وهتفت خديجة حين شاهدت الاغا :

« تفضل يا أغا مرحبا بك في بيتنا ! لم تعد تزورنا منذ زمن • »

وعادت الى الداخل مسرعة يتبعها الاغا •

« خليل استيقظ ،الوقت ضحى• ليتك عميت ــ التفت الىالاغاوهي تشير الى ابنها ــ انظر يامحمود اغا ، الوقت ضحى وهو مايزال نائما ! »

قفز خليل من فراشه خجلا حين شاهد محمود اغا واقفا عند رأسه • وأرتدى سرواله الاسود وسترته بعد ان نفضهما • بينما

كانت أمه مستمرة في شكواها للاغا :

« فديتك يامحمود أغا ، أقبل قدميك . ألا تدري ماالذي حلّ بنا ؟ الا تسأل عن حالي ؟ اعرف انك لن تسمح لنا بالبقاء في ارضك بعد . أقبل قدميك يا محمود أغا ! لاتسأل عما فعله خليل بنا . خليل ! خليل ! ليتني دفنته في التراب ! »

قاطعها محمود اغا قائلاً :

« لماذا تدعين عليه بالسوء ؟ ما الذي حدث ؟ »

« لاتسأل عن حالي يامحمود اغا ! ـ قالت خديجة ـ كان فجرا حين عاد الى البيت الليلة الماضية . وهكذا هو مذ ان دخلت زوجة عثمان القرية . انه يعود في الفجر وينام النهار كله . حسنا من الذي يحرث الحقل ، اذن ؟ لقد احرقت فاديك ، عاهرة حورو بيتنا . سنموت جوعا هذا العام . حاولت ان انهيه عن هذا لكنه أصمّ أذنيه عن كلامي وامتنع عن الذهاب الى الحقل . ليتك عميت يا خليل ! ليتك عميت يا حورو ! افعل شيئا ما يا اغا ، اقبل يديك وقدميك ، أفعل شيئا ما »

« دعينا وحدنا لبرهة يا خديجة . » قال محمود اغا ، ثم التفت الى خليل وهو يحرك نظاراته وقد استطالت رقبته الحمراء :

« تعال يا خليل ، تعال الى جانبي يابني . لينته هذا الموضوع . خذ هذه العاهرة من القرية وسلمها الى شباب قرى اخرى . عليك ان تقوم بهذه الهمة . اجل انت من ستقوم بها ! فاما انا في هذه القرية او تلك المرأة ! هل سمعت ؟ »

« أооووه ، أهذا كل مايزعجك ياآغا ؟ سأخذها هذا المساء وأسلمها الى جليل في قرية أورطاليق •• وهل يصعب عليّ هذا ؟ »

« خديجة ، تعالي ياخديجة ــ صاح الاغا فرحـاً ــ لقد خلصتك والقرية كلهـا . لتعرف حورو من أنا • أنـا من يدعونني محمود الذيب ، الذي لايهاب جابي الضرائب ولاغيره ••• »

قبيل الفجر ، تعالت في سماء القرية صيحات حادة :

« ايها القوادون ، لن أدع عملكم هذا دون عقـاب • لن ادعكم حتى ولو مت • سترون ما الذي سأفعله بكم • لم تحتملوا زوجة هذا المسكين • انتظر يامحمود الذيب ، سأستدعي علي الجابي ، وسأرصد كل ما املك في سبيل فاديك ، سأرشي المدير والقائمقام • سـأبعث ببرقية الى انقرة ، الى عصمت باشا ، سأسوقكم جميعا الى المحكمة ، الى مركز الشرطة • سأنفق كل ما املك في سبيل فاديك • »

كانت حورو تتوقف وتستعيد انفاسها ثم تعود الى صياحها وشتائمها ثانية •

لقد اختفت فاديك •

تحرت حورو في القرية ، وسرعان ما اكتشفت ان شخصا اخر مختفٍ ايضا ، هو « أبن حسين » ذلك الابله الملقب بالقراد •

« مستحيل ــ صاحت حورو ــ لـن أصدق هذا ، القراد يخطف النساء ؟ ! لن اصدق هذا قط • انه من تدبير اولئك القـوادين ايضا •• »

« لكنها الحقيقة يا حورو ــ قال القرويون وهم يحاولون اقناعها كان القراد يطاردها منذ زمن • ألا تدرين انـه جمع قواقع بيضاء من الجبال ورتبها في خيط واهداها لفاديك التي احتفظت بها في بيتها للذكرى ؟ هذه هي الحقيقة ، سواء أصدقت بها أم لا ! »

« لن أصدق ــ صاحت حورو باصرار ــ لن اصدق حتى ولـو شاهدتهما معاً بعيني • »

كان ذلك بعد ثلاثة ايام من حدوث الامر ، حين سقط المطر غزيراً • من تلك الامطار القوية التي تصيب منطقة جوقور اوا •

عاد عثمان مسرعا من الحقل ، رغم غزارة المطر ، حين وصله نبأ اختفاء زوجته••وقف أمام باب حورو•كانت ثيابه مبتلة وملتصقة بجسده ، وكأنه خرج تواً من الماء ، وغطى الطين جزمته ، وسقطت قبعته فوق عينيه :

« تعال الى الداخل ياعثمان ، هيا ! » ألحت عليه حورو •

« لا أعرف ! » قال عثمـان •

« لتذهب ! ــ قالت حورو ــ ليأخذوا تلك العاهرة ، لكني لن ادعهم بسلام • لقد بعثت بخبر الى الجابي علي ، ليأت ويسلب هؤلاء الجاحدين وعديمي الشرف كل ما يملكونه دفعة واحدة • والا فلن أدعه يناديني بلقب الام بعد اليوم • أدخل ياعثمان ! فلتذهب تلك العاهرة • ثم ماذا ؟ سأجد لك زوجة افضل منها وسأدفع لها ضعف مادفعت لتلك ، مادامت لدي نقود • تعال فقط الى الداخل ! »

ظل عثمان واقفا في مكانه تحت المطر الذي كان مثل نسيج كثيف بين السماء والارض • وجسده يتقطر ماء ، مسندا ذقنه الى عصاه دون ان يتفوه بشيء وكأنه شجرة ضخمة قطعت اغصانها •

التجأت حورو الى جيرانها ، وحاول رجلان منهم دون جدوى ان يزحزحا عثمان من مكانه • لكنه ظل في مكانه ساحبا رقبته الى الداخل حتى العصر • ثم اخذ يتمشى تحت المطر جيئة وذهابا قاطعا القرية من اقصاها الى اقصاها دون ان يتحدث الى أحد بشيء وردد الذين شاهدوه على هذا الحال :

« لقد جن عثمان ، ياله من بائس • »

توسلت حورو الى أشخاص آخرين اقوياء من اهل القرية فأدخلوه البيت ونزعوا عنه ثيابه وأرقدوه في الفراش • وجلست حورو الى جانبه :

« انظر ياعثمان ، سأجد لك زوجة اخرى حتى ولو كلفتني ألف ليرة ، فكف عن ايذاء نفسك من اجل امرأة ! »

في صباح اليوم التالي ، عاد عثمان الى نفسه قليلا ، لكنه امتنع عن الذهاب الى الحقل حين طلبت حورو منه ذلك • وعاود مشيته في القرية ، وهو يسمع المارة وهم يرددون آسفين : « واه عثمان ، واه ! » فيتحسر من أعماقه ويظل يدور •

لو استعمل محمود الذيب عقله قليلا ، لادرك ان خليلاً هذا لن يتخلى بسهولة عن المرأة التي وجدها بين يديه فجأة •

جاء خليل بفاديك ووضعها في واحد من تلك البيوت المهجورة الواقعة خلف القرية والمخصصة لايواء الماشية • وجعل القراد حارسا عليها •

« اسمع ياقراد ، تمتع بها قدر ماتستطيع ! ــ أمسك برسغه وأضغط عليها بشدة ــ ولكن اياك ان تأخذها الى مكان اخر ، والا فاعتبر نفسك ميتا لامحالة • »

كان القراد يبدو صبي في العاشرة ، رغم انه كان في العشرين من عمره • وكان ضعيفا هزيل اليدين والساقين ويميل وهو يمشي الى جانبه وكأنه السرطان • وقد لقبوه بـ « القراد » للزوجته والتصاقه بالناس • وقد عرف بهذا اللقب دون ان يعرف احد اسمه الحقيقي • ويبدو ان امه هي الاخرى قد نسيت اسمه •

كان خليل يجلب الطعام في كل ليلة لفاديك والقراد ، ثم يعود ادراجه الى القرية فجرا • بيد ان هذا لم يدم غير ثلاثة ايام ، حتى علم شباب القرية بمحل فاديك وبما يجري سرا • وبدأوا يتوافدون الى المكان كل ليلة مثل قافلة طويلة ويدخلون عليها الواحد بعد الاخر دون ان يحفلوا لصراخها وبكائها وتوسلاتها • ثم يعودون الى القرية قبيل الصبح وهم يغنون ويطلقون مسدساتهم وكأنهم في موكب عرس •

هبط المساء ، وتملكت فاديك قشعريرة خوف • فهم سيأتون ايضاً وهي لم تعد تطيق ، ولم تذق طعاماً منذ يومين • كانت ترقد

على الارض المغطاة بالروث ، جامدة وقد امتلأجسدها بالرضوض .
وكان القراد راقداً هو الاخر في زاوية .

« دعني أذهب ياأخي — اخذت فاديك تتوسل اليه — سأموت حتماً اذا جاؤا اليوم أيضا ! »

فتح القراد عينيه قليلاً وقال :

« وما علاقتي بالامر ؟ ! أأنا من أتيت بك الى هنا ؟ »

« لكنني سأموت ، وستكون انت قاتلي ، دعيني اذهب ياأخي اكراماً لله .. »

« وما علاقتي انا بالامر ؟ » قال القراد محتداً .

« أخلِ سبيلي ، وسأبتعد من هنا زاحفة واختفي في مكان ما ، ثم اذهب الى أمي . أخل سبيلي ياأخي . »

« لا أقدر ، لست من أتى بك الى هنا . وما علاقتي بالامر ؟ ثم ان خليلاً سيقتلني ولن يدخلني القرية ثانية ان انا اخليت سبيلك .»

« أقبل قدميك ، سأموت اذا جاؤا ثانية . وستكون انت قاتلي ، أخل سبيلي ارجوك ، دعني اذهب الى امي الظالمة ! »

مع هبوط الظلام ، تناهت اليها اصوات الغناء من بعيد ، فبدأت ترتجف خوفا وتتوسل من جديد :

« انهم قادمون ، دعني اذهب الى أمي ، انقذني يا اخي ، سأتزوج منك اذا تركتني أذهب . »

« سيقتلونني ــ قال القراد ــ لن أمــوت بسببيلك • ثم ان خليلا وعدني بزوج حذاء ، فلماذا أخسره ؟ »

اخذت فاديك بالبكاء حين يئست من الامر ، وهي تصيح :

« أواه ياالهي ، اواه ياالهي ، الى اين اولي وجهي ؟ »

ومثل كل ليلة احتشدوا امام الباب ، ودخلوا عليها الواحد بعد الاخر دون ان يحفلوا بصراخها الذي كان يتصاعد مع كل داخل جديــــد :

« اواه ياألهي ! اواه ياالهي ! »

ثم غرق كل شيء في صمت عميق •

كان هناك بقع من الدم على الصخرة القائمة قبالة البيت • فقد تشاجر خليل وابن محمود اغا في الليلة الماضية • وشجّ ابن الاغا ، رأس خليل •

« ان المرأة لي ــ قال له خليل ــ وسأكون من يدخل عليها اولا •»

« كلا ــ أصرّ ابن الاغا ــ بل انا من سيكون الاول معها • »

فأنقسم الشباب الى فريقين واشتبكوا مع بعضهم حتى الصباح ثم عادوا الى القرية •

التجأت العجوز خديجة الى المختار وهي تبكي :

« اتوسل اليك ايها المختار ، سيموت ابني خليل ، انه يحتضر ، لقد اعتدى عليه ابن محمود الذيب الكافر ، بسبب العاهرة حورو • ماذا أفعل اذا مات ابني ؟ سأموت جوعــا • انــه

وحيدي في الحياة . وحيد امرأة عجوز ، ياسيدي المختار ! »

أفلح مختار في اقناعها بالعدول عن رأيها في الذهاب الى الحكومة . وقال لها في النهاية :

« لاتهتمي ياخديجة خاتون ، سأجد لهذا الامر حلا . »

جمع المختار أهل القرية وعلى رأسهم محمود اغا ، وناقشوا الامر طويلا . فاذا ماسمحوا للعجوز بالالتجاء الى الشرطة فأن الجندرمة سيستولون على فاديك وهذا طعن في شرف القرية . اما اذا سلموها الى شباب قرى اخرى ، فان حورو ستجد في البحث عنها وتستعيدها مهما كلفها الثمن . فقرروا بعد طول تفكير ونقاش ، اعادة المرأة الى عثمان على ان يأخذ من فوره الى قرية بعيدة . وسيقبل عثمان بهذا الحل شاكراً ، كما وتصاب حورو بضربه موجعة ، حيث انها ستخسر عثمان وزوجته معاً في آن واحد . وسيكون هذا درساً لها حتى لا تتلاعب ثانية في مقدرات قرية باكملها !

أستدعوا امامهم ، وطلبوا منه أن يجلس ، لكنه رفض وظل واقفاً في مكانه وعصاه في يده ، وقد تمزقت ثيابه واصطبغت باللون الاصفر من رقاده فوق التبن المبتل . والتصق نثار التبن بلحيته الكثة ، واحمرت عيناه مثل وعاءين من دم .

أمسك محمود اغا الذيب بخيط نظارته وقال :

« ما هذه الحال التي انت عليها ياعثمان ؟ أكل هذا من أجل امرأة ؟ ستموت اذا بقيت هكذا . »

« وما ادراني ! ــ قال عثمان ــ سأموت يا اغا • »

« انظر ياعثمان ــ قال محمود اغا ــ لقد اشفقنا عليك ، وقررنا ان نأخذ زوجتك من بين ايدي اولئك الكلاب ونعيدها اليك • ولكنك ستأخذها وتتركان القرية حالاً دون ان تخبر حورو ، حتى لاتعلم بمكان وجودكما • يجب ان تذهبا بعيداً • »

« ياعثمان ــ قال يومرو ولي ــ لقد وجد الاغاوات انك ستموت بسبب تلك المرأة ، ولقد رقوا لك وكثر اشفاقهم عليك • أن أباك نفسه لن يحسن اليك اكثر من هذا • فخذ زوجتك بعيداً دون ان تخبر حورو • »

قال محمود اغا :

« لاتخبر حورو والا سأبقيك هنا حتى يغتصب الفتية زوجتك منك ثانية ، وهل تقدر ان تحصل على امرأة مرة اخرى ؟ »

« من الذي سيغسل ثيابك ؟ ــ قال يومرو ولي ــ من الذي سيطبخ لك ؟ خذ المرأة دون ان تخبر حورو واذهب الى جهة « عينتاب » ، ستجد هناك عملا وستعيشان سعيدين • »

« ولكن كيف ــ تساءل عثمان ــ وسيدتي حورو دفعت مائة ليرة من اجلها ؟ »

« لا عليك ــ قال محمود اغا الذيب ــ سنجمع المبلغ بيننا وندفعه لحورو •خذ المرأة واذهب فقط • »

« لا أعرف ــ قال عثمان ــ ان لسيدتي حورو فضلا كبيرا عليّ ،

كيف أفعل هذا من أجل امرأة ؟» واغرورقت عيناه وبلع ريقه.

« لايمكن ان تخبر حورو ـ قالوا ـ اليست هنالك قرية اخرى ؟ تترك هذه وتسكن غيرها ! أليس هنالك من مكان غير جوقور اوا ؟ أليست هنالك سيدة اخرى غير حورو ؟ خذ زوجتك وأذهب ، فلن تحصل على امرأة مثلها قط . وسيخبرك ولي بمكان زوجتك غدا ، فخذها وأذهب .. »

فكر عثمان طويلا وهو مطرق ، ثم قال :

« لن أخبر سيدتي ، أليست هنالك قرية غير هـذه ؟ سأتركها الى غيرهـا ! »

وصل عثمان قبل بزوغ فجر اليوم التالي ، الى البيت الذي وصفه له يومرو ولي . ووقف امام الباب خائناً وفرحاً معاً .

« وما ادراني أنا ! وما ادراني أنا ! » قال هذا عدة مرات ، ثم نادى بصوت خفيض :

« فاديك ! يا فاديك ! »

لم يأته جواب من الداخل ، فكرر مع نفسـه :

« وما أدراني أنا ! »

دخل بخوف وهو يرتجف ، لكنه جمد في مكانه مذعورا ، كانت فاديك راقدةعلى الروث فاغرة الفم ، ممزقة الثياب ، عارية الجسد ، وكانت عيناها مفتوحتين على سعتهما ومثبتتين في سقف البيت . لبث عثمان يحدق فيها مشدوهاً وقد اغرورقت عيناه ،

ثم انحنى عليها بجسده الضخم قائلا :
« فاديك ، ما الذي جرى لك ؟ »

أنّتْ فاديك بعمق ، فاضطرب عثمان ، ثم نزع سترته وسرواله وألبسهما اياها . ولمح القراد متكوما في ركن ، فساراليه غاضبا ، فارتعب هذا واخذ يتوسل اليه :

« ياعم عثمان ، لولاي لماتت اختي فاديك . لست انا من جلبها الى هنا . انه خليل . وقد وعدني بان يشتري لي زوجا من الحذاء ! »

حمل عثمان المرأة وخرج بها مسرعاً .

كانت قمم الجبال مخضبة بضوء الشمس التي بدأت تبزغ تواً، وقطع من الغيوم البيضاء تسبح في الجو ، والارض مبتلة بالندى وهب على وجهيهما نسيم بارد ، فالتفت عثمان الى الوراء ولمح القراد متجها الى القرية .

« يا اخي ــ صاح عثمان ــ اذهب الى سيدتي حورو ، وقل لها ان عثمان يطلب عفوكِ ، لقد احسنتْ اليّ كثيرا ، فلتصفح عني .»

ثم واصل سيره والمرأة على ظهره، حتى تعب فانزلها وجلس هو أمامها وتبادلا النظرات طويلا وبصمت . وكانت فاديك تئن .

« حسنا ــ قال لها عثمان ــ قولي الى اين نذهب الان ؟ فانا لا اعرف ! »

وكان الجو مشبعا برائحة الربيع ، والبخار يتصاعد من الارض .

المحتويات

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(١٥٠٢) لسنة ١٩٨٠

تصميم الغلاف : نيران عبدالرحمن

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والاعلام
دار الرشيد للنشر

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان

دار الحرية للطباعة ـ بغداد